

من موسوعة وصف مصر
(١)

كيف خرج اليهود من مصر القديمة

ترجمة
زهير الشايب

تأليف
دي بوا - إيميه



909

2

١

من موسوعة وصف مصر

(١)

كيف خرج اليهود من مصر القديمة

تأليف . دى بوا - إيميه ترجمة : زهير الشايب

١٩٩١

«العنوان الأصلي للدراسة مذكرة موجزة عن إقامة
العبرانيين في مصر، وعن هروبهم إلى الصحراء»^(١) ، تأليف
دى بوا - إيميه مراسل المجمع العلمى الفرنسى، وعضو
شعبة العلوم والفنون بمصر، وعضو أكاديمية العلوم فى
تورينو، والفارس الحائز على وسام الشرف «

(١) قدمت هذه الدراسة إلى شعبة مصر فى أول اكتوبر عام ١٨١٠
باعتبارها مكمله لدراسة أخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات
مصر، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات، وأرسلها إلى
اللجنة فى أكتوبر ١٨١٣ .

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس ثمة حاجة إلى الحديث عن أهمية وضرورة هذا السفر الضخم الذى خلفه علماء الحملة الفرنسية، فقد تحدث العمل عن نفسه منذ صدوره، ولا يزال ينطق بما يحويه من دراسات بالغة الأهمية لكل قارئ أو باحث مهتم بتاريخ مصر، لاسيما وأن من قدموا هذه الدراسات قد جمعوا بين الروح العلمية والمشاهدة العينية.

فقد قام هؤلاء العلماء برصد كل ما شاهدوه لدى المصريين فى مختلف نواحي الحياة، وقدموا لنا لوحة أمينة - بالكلمة والصورة - عن حياة مصر فى ذلك العصر وما سبقه من عصور.

غير أن هذه الدراسات جاءت مختلفة الأحجام، تتجاوز - فى أصلها الفرنسى - فى نفس المجلد قصيرة وطويلة، دون أى نسق منهجى واضح.

وقد ركز والدى - رحمه الله - عمله على مجلدات الدولة الحديثة، واختط لنفسه طابعا منهجيا، حيث قام بتجميع ما بها من دراسات حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله. وامعانا فى هذا النهج قدم دراستين من الدولة القديمة، كانت الأولى هى المجلد السابع من الترجمة العربية، وبه تتم موسوعة الموسيقى والغناء عند المصريين، والثانية موضوع هذا الكتاب، وهى تتم دراسة صاحبها - دى بوا ايميه - عن القبائل العربية فى صحراوات مصر.

وبصدور المجلد العاشر - قريبا إن شاء الله - يكون قد تم لنا اخراج دراسات الدولة الحديثة تقريبا، ويبقى بعد ذلك دراسات الدولة القديمة أمانة فى عنقى، استعين الله وحده على اخراجها حتى يتم ما أسماه والدى بالترجمة الكاملة لموسوعة وصف مصر.

ومن منطلق تحمل التبعة قمت بمراجعة وتنقيح المجلدات التى سبق أن صدرت، لتخرج فى ثوبها اللائق، وبينما أنا كذلك جال بخاطرى: أن هناك قطاعا كبيرا من الدارسين

يخصصهم دراسة بعينها ولا يعينهم سواها، وأن هناك من القراء من تستهويه قراءة موضوع دون الآخر، فلماذا إذن نلزم أولئك وهؤلاء باستحواذ مجلدات أو مجلد لا يعينهم سوى جزء منه.

ولذلك تم اختيار بعض الدراسات القصيرة التي تفيد كثيرين من دارسينا وقرائنا الأعزاء، وسوف تصدر تباعا إن شاء الله.

وأود أن أنوه أن هذه الدراسات هي كما بالأصل تماما دون أدنى حذف أو اختصار.

والله ولي التوفيق ..

هنس زهير الشايب

الفصل الأول

مقدمة

اشتهر المصريون، فى عهد بعض ملوكهم، بمهارتهم فى فنون القتال، كما حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة قوانينهم، واتساع معارفهم، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم ؛ وحين قاموا - هم - بتحضير اليونان، فقد غدوا أساتذة لأوربا.

ولقد اختفت هذه الأمة الشهيرة، كما اختفت مئات الأمم غيرها، فى حين يظل يعيش حتى اليوم شعب كان عبدا للفراعنة، ومع أنه قد بات مشتتا فوق الكرة الأرضية كلها، خاضعا لكل صنوف الحكومات، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه، ولغته وملامحه ؛ وفى الوقت الذى تجد أقوى الأمم فى أوربا نفسها غير واثقة من أصلها، وفى حين يجهل الفرنسي الذى انتزع النصر من فونتنوى وفينا وبرلين وموسكو وروما إن كانت الدماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق أعدائه، وفى حين لا يعرف أكان أجداده من الفرنج أو من الغالين ، أكانوا يقطنون ضفاف

السين أوالتبر أو الدانوب ، فان أبسط يهودى يحوز ذلك الشئ، الذى قد يكون مدعاة فخار للمتحكمين فيه، أى أنه يمتلك أصلا ينتمى لجنس قديم ؛ إن بإمكانه أن يقول، سواء كان قد ولد فى بولونيا أو فى أسبانيا . لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا وصحراوات مصر فى وقت لم تكن قد وجدت فيه بعد روما ولا أثينا ولا اسبرطة ولا أى من تلك المدن التى تشكل مباحج العصور القديمة وأمجادها.

وتعود هذه الظاهرة السياسية إلى قوة تلك الشرائع والمؤسسات التى أقامها موسى ، فانه بعزلة شعبه هكذا، وبشكل تام، عن بقية البشر، قد جعل من تشيته أمرا سهلا، لكنه فى الوقت نفسه جعل فناءه كذلك مستحيلا ؛ إن اليهود - منتصرين - لم يستطيعوا (بفعل هذه الأنظمة) أن يجعلوا من قوتهم أقوى من قوى الأمم التى أخضعوها، أما عندما كانت تحقيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم أن يختلطوا بالمنتصرين. وتعود غالبية النقائص التى تعاب عليهم اليوم إلى حالة الازلال التى انتهوا إليها فى كل مكان ؛ وحيث إنه لا دور لهم فى إدارة شئون الدولة، كما أنه ليس بمقدورهم أن يملكوا

الأراضى ولا أن يتمتعوا بحرية العمل الحقلى، تلك التى تربي الروح والوجدان، بل ولأنهم - فوق ذلك - يضطرون لأن يقيموا فى أحياء منفصلة فى داخل المدن، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وأن يعيشوا فيها مكسسين بعضهم فوق بعضهم الآخر، وألا ينخرطوا فى أى فن شريف، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به إلا أن يشتروا وأن يبيعوا ؛ أما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لازلال قاهريهم، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة، فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم، وليست هناك شهوة تستطيع أن تتلف الانسان فى جسده وروحه أكثر من هذه.

وقد يكون من غير المجدى أن نحاول أن نثبت أن عيوبهم هذه تعود إلى شرائعهم وتنظيماتهم؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك؛ فنفس الأسباب قد سربت إلى هؤلاء نفس المساوى ؛ فالانسان، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة، ربما يصبح، مهما تكن الدماء التى تتدفق فى عروقه، مخاتلا ورعيدا حين يضير عبدا مهانا.

وفى البلدان التى تحسن فيها الأفكار والفلسفات ،

والديانة السمحة من قدر اليهود، ينهض من بينهم - هناك - رجال فضلاء وأدباء متميزون : ولقد رأينا فى أيامنا هذه اسرائيليين يقاتلون بعظمة تحت راية فرنسا.

اذن فعلينا ألا نخط من قدر أمة لا تحتاج، كى تصبح جديرة بالاحترام ، إلا لأن تحترم ؛ ودينها فضلا عن ذلك، هو قاعدة لديننا ؛ وعلينا ألا ننسى بصفة خاصة أنها أظهرت وسط المحن والآلام خاصية عظيمة، وأنه إذا كان العفو يعد شرفا للقوة فإن المشاعر الرقيقة تكون شرفا للضعف، ونسوق مثلا على ذلك لا ينسى : لقد تجرأت أورشليم على قتال روما التى كان يرتعد أمامها أعتى ملوك الأرض؛ ثم أقام اليهود المهزومون، فى روما، بأيديهم المكبل بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس * Titus الذى تخلد نقوشه البارزة ذكرى سقوط المدينة المقدسة، حسن، لقد انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا، من تحت هذا القوس الذى يكرس هزيمتهم، أحد من أحفادهم أولئك الذين ظلوا على

* امبراطور روما من ٧٩ إلى ٨١، وكان يطلق عليه اسم «ملاذ البشر»، وكان واحدا من الحكام الذين يسعون باخلاص شديد لتخفيف آلام شعبيهم، وحين لم تواته الفرصة فى أحد الأيام لتقديم الخير صاح لقد ضاع يوم من حياتى، وفى عهده حدثت كارثة بركان فيزوف (عام ٧٩). (المترجم)

الدوام يحفظون ذكرى هذه الالهانة؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لأنفسهم قريبا من هذا المبنى، كان اليهود يخرجون من الفورم* Forum قبل أن تؤدي عمليات الهدم والتنقيب التي تمت إلى فتح منافذ اتصال أخرى.

وذا ت يوم، كنت أتأمل في هذه النقوش البارزة لهذا القوس، شمعدانا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظافرة للامبراطور، ومر بالقرب منى رجل عبرانى؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التي لم يستطع أى طقس أن ينال منها، وأظننى قرأت في نظراته التي القى بها على هذا المبنى، أبيات الشعر هذه، التي وضعها شاعر كبير:

أى صهيون، يا من يستحق الرثاء؛
ماذا صنعت بمجدك؟
فالعالم كله مأخوذ بعظمتك؛
أما أنت - فلم تعد سوى غبار؛
ولم يعد يبقى لنا من هذا المجد،
إلا الذكريات الحزينة.

«استير، الفصل الأول، المشهد الثانى»

(*) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليناقد المسائل العامة.
(المترجم)

وقلت لنفسى : كم من الأسئلة يمكن أن يلقيها هذا
العبرانى على ، لو عرف أننى أقمت بمصر، وأننى أقمت
خيمتى فى أرض جاسان، وعبرت البحر الأحمر سيرا على
قدمى، وتجولت هنا وهناك، وسرت على غير هدى فى
الصحراوات التى يحيط بها جبال حوريب وسيناء !

ومع ذلك فأى انسان هو، مهما تكن معتقداته، ذلك الذى
لن ينهمر بأسئلته على رحالة وطئت أقدامه أرض المعجزات
والأمجاد هذه ؟ وهل هناك ملاحظة، ولتكن اصطناعية لأى
مدى، يكون من شأنها أن تعود بنا إلى التقلب فى تاريخ
الاسرائيليين .. دون أن يستمع إليها الإنسان بشغف ؟ وعلى
هذا ، فمع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه ،
فسأحكى ما أملت على عملية التنقيب فى المواقع، حول إقامة
العبرانيين فى أرض جاسان، وحول هروبهم إلى الصحراء ،
وستؤايب الفائدة من وراء هذا الموضوع من ثنايا ما أحكيه.

عن الأسفار

أسفار موسى هي مجموعة الكتب الخمسة التي خطها موسى : سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، وسفر التثنية.

وعلى الرغم من التناقضات التي يعتقد بعض النقاد أنهم قد وجدوها في هذه الأسفار^(٢) ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها، فإن الجميع مضطرون للاعتراف بأنها أقدم أثر مكتوب قد وصل إلينا، كما أنهم لا يستطيعون، مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضوا ما نجده في هذه الكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتاريخ لشعب كان رعويا جوابا، ثم زراعيا، ثم جماعة من العبيد، ثم عاد مرة أخرى إلى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا. ان تغييرات شبيهة

(٢) وفضلا عن ذلك قما هي غالبية هذه التناقضات التي تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتقعر ؟ بعض أخطاء من الناسخين، وعدة تفسيرات عارضة هي من اجتهاد المترجمين، ثم لا شيء أكثر ، أليس من الأسهل على سبيل المثال أن نتقبل فكرة أن رجلا ينسخ في سوريا، في غرب الأردن، نصوص الأسفار، قد أمكنه أن يضع عبارة فيما أمام هذا النهر في موضع ما كان مذكورا في الأصل على أنه إلى ما وراء ، وأن يشير إلى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك أسماء المدن التي أنشئت فيها بعد ذلك ؟

تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه،
فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بعينه.

وفى الوقت نفسه ، فإننا عند تصدينا لمادة من هذا
النوع، نحاذر أن نجرح أى رأى : فليقرأنا المسيحى
واليهودى والمسلم والربانى دون أن يستشعر أى حرج أو
إهانة؛ فلسنا هنا بصدد كتاب دينى، ولكننا ننظر إليه كوقائع
تاريخية ، وجغرافية ، ومبادئ أخلاقية وروحية.

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل أولئك الذين يرون أنهم ليسوا فى
حاجة إلا لعقيدتهم الدينية حتى أنهم يؤمنون إيماناً مطلقاً
بكل ما جاء فى الأسفار، لماذا لا يتقبلون عن طيب خاطر أن
هناك بعض الوقائع (التي تروىها هذه الكتب) تعز على
التصديق حين تستخدم طرق أخرى للتفكير ؟ أما هؤلاء الذين
تدفعهم شكوكهم إلى تنحية كل عمل يكتشفون فيه بعضاً من
الخطأ ووضعه فى مرتبة الأساطير، وإلى النظر إلى وقائع
بالغة البساطة باعتبارها أمورا مبهمه تكتنفها الشكوك لمجرد
أنها تختلط فى نظرهم - بظواهر تنتمى إلى ما وراء الطبيعة
- لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شئ من

شكوكهم ؟ وأما أولئك الذين يتعرفون على الله فى نظام الطبيعة الرائع فلماذا - هم بدورهم فى النهاية - يكابرون، عن غير حق، فيعتقدوا أن أسبابا روحية يمكنها أن تمارس تأثيرها على المادة، وأن الصلوات وأن الدموع تستطيع أن تغير شيئا ما من نواميس العالم الفيزيقي ؟ ولماذا يسعى هؤلاء الذين لا يمكنهم أن يتقبلوا أن يكون إله الكون شبيها بآلهة هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل أشخاص زائلين أو أمور فانية، لالقاء الملامة على أبحاثنا، اذا ما سعت هذه الأبحاث إلى أن تجلو أمامهم تاريخ شعب فريد. وذلك بأن تقدم لهم بعضا من المعجزات التى ترفضها وتتأبأها عقولهم باعتبارها شيئا من المصادفات السعيدة التى تجود بها ظواهر الطبيعة ؟ .

عن الرعاية الرحل

لم يجد الانسان، فى أكثر مناطق العالم بدائية يمكن أن تصل إليها قدماءه، أشباهه منعزلين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم متجمعين فى شكل قبائل تتفاوت

أحجامها، وإذا لم يكن لدينا في هذا الصدد من زعم اجماعى
مثل مالى الرحالة ، فان فكرة التماثل قد تقودنا فى قضيتنا
هذه إذا ما لاحظنا بعناية مايدور فى عالم الحيوان، وإذا ما
قارنا التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا، وعاداتنا
الطبيعية وخصالنا الروحية والجسدية بمثيلاتها التى سوف
نجدها عند الحيوان.

وتحمل هذه الاعتبارات نفسها، إذا ما أضيفت الى
الشهادات التاريخية، على الظن بأن الإنسان كان صيادا
وراعيا قبل ان يكون مزارعا، وأنه قد ساح فى الأرض قبل
أن يكون لنفسه فيها مقار ثابتة ، وأن الناس فى كل مكان
خصيب التربة، رقيق الطقس، صحى الهواء لدرجة كبيرة ، قد
تزايدوا بسرعة هائلة، بعد أن مروا، من باب أولى ، من
الحالتين الأوليين (الصيد والرعى) إلى الثالثة (الزراعة).

وفى هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه، وقد أصبح
أقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع عن نفسه، احتياجات
جديدة؛ اصطناعية بلا جدال، لكنه يلذ له أن يفى بها، فارتقى
بالفنون، وزاد من عددها، واخترع العلوم؛ وعندما داخله الزهو

من تسامى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين (البدائيين)، ورد الأخير على الاحتقار باحتقار مماثل فأذاق الأول، لأكثر من مرة، ما تستطيعه القوة والشجاعة، وليدنا الاستقلال والفقر.

وبسبب هاتين الحالتين بالغتى التعارض تولدت أحقاد واضحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة. وفوق ذلك، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه فى تناقص الأولين لأنهم - فى حالة انتصارهم - يأخذون عادات المهزومين، ويرغمون - فى حالة هزيمتهم - على هجر أنماط حياتهم؛ وكان من الممكن أن يندثر هؤلاء الرعاة - على المدى الطويل - كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض أقاليم تحول قحولتها، أو عدم صحتها، دون تقدم أحوال سكانها، وحيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش إلا بمعونة القطعان، مع تغييره المستمر لمكانه، ولو لم توجد فى النهاية أماكن يجد فيها هذا الإنسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم بالغة القوة. أما هذه الأماكن، فلقد كانت، من بين مناطق أخرى، صحراوات مصر والجزيرة العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين التى سكنتها فيما مضى

قبائل العبرانيين، والتي لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل
الرعاة الرحل.

ان الحالة الطبيعية لهذه البلاد لا تقدم جاذبية من أى نوع
لقدوم غزوات أجنبية، كما أنها لاتدع فرصة للاختيار بين عدد
كبير من الأنماط لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات أو
العلاقات السياسية لسكانها؛ اذن فعلى المرء أن يعثر هنا على
عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القدم ؛ ان هذا فى الواقع
هو ما حدث، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه تاريخ
شيوخ العرب فى أيامنا هذه^(٣).

ابراهيم

فى تلك الصحراوات القاحلة التى انتهينا من الحديث
عنها تطلعت عشائر بأسرها إلى تلك الفكرة السامية التى

(٣) انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر، الدولة الحديثة،
المجلد الأول، ص ٥٧٧ ، لكننى اكتفى بأن أضيف هنا إلى القائمة التى
قدمتها عن بعض العادات الشائعة عند الشعبين، عادة تمزيق هؤلاء وأولئك
للابسهم واهالة التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد.

تحدث عن وجود إله واحد^(٤). وهناك نشأت هذه الديانة التي انتشرت وسادت في أكبر جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية أو المسيحية أو الإسلام بحسب التعديلات التي تناولتها.

أما في أقاليم اليونان الزاهية، على ضفاف نهري روفيا وسيفيزا* فقد استطاع الانسان أن يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس ويومونا، الطبيعة وقد جعلتها الفؤود والمحاصيل والثمار، كما أمكنه - متمتعا بمباهج الفنون الجميلة - أن يتضرع إليها باسم منيرفا أو أبوللو. وأما في قبرص المعطرة

(٤) تقدم لنا القبائل العربية التي أخذت على عاتقها، بعد أن تجمعت في شكل دولة تحمل اسم الوهابيين، أن تقوم وأن تتقى الدين الاسلامي (من الشوائب التي شابته)، برهاناً جديداً لما نقوله الآن، فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون، في بساطتهم هذه، إلى نفس نقطة المعتقد الديني الذي توصل إليه غالبية الرجال المتحضرين في أرقى أمم الأرض، أي الألوهية الخالصة، فالوهابيون لا يدعون لله شريكاً قط، ولا يبتهلون إلا إليه، أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهم سوى حكماء (أنبياء)، أما الأمجاد الدينية التي يردها الناس إلى هؤلاء (وقد يعنى هنا التوسل بهم مثلاً، أو تعظيمهم - المترجم) فليست في نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية.

* في البلوبونيز. (المترجم).

وأیونا الرخوة، وسط أجواء تحمل النفس إلى الدعة فقد يعبد
فی قسّمات وملاحم أجمل النساء اللذة التي تجر إلى جنس
یسحر الأبّاب، وحيث كان يحصل على مباهاجه بمئات الطرق
فقد كان يجد فی كل بهجة الها محسنا مختلفا.

وتحت سماء أقل حظا أمكن أهالی تراقيا، كما استطاع
الجرمانيون، الذين كانوا - هؤلاء وأولئك - قد تعودوا فی
صيدهم وحروبهم الدائمة على سفح دماء فرائسهم أو
نظرائهم، كل يوم، أن يجدوا مقر رب الحرب فی هذه الغابات
المعتمة التي تبدو همهمة الريح فيها كما لو كانت صیحات
شاكية تتوجع من الآلام.

لكن، أكان شعب رعوى، يضرب فی سهول فسيحة من
الرمال، بمستطیع أن يعبد الأرض مع خواصه العديدة
وأحداثه المتنوعة فی حين كانت تبدو الأرض بالنسبة له
شحيحة للغاية وأحادية الشكل؟ أكان بوسعها، وهو یجهل ترف
الفنون أن یؤله خالقها (أی مظاهر الطبيعة التي تؤدي إلى
نشأتها)؟ وفي الوقت نفسه الذي نجده فيه انسانیا ورقیقا،
يعیش على لبن قطعانه، أكان فی مقدوره أن يعبد إله الحرب

شأنه شأن المتوحش الذى لا يلجأ إلا لقوته عندما تجابهه
مخاطر الأيام، والذى يتغذى على لحم ينبض (بالحياة) ويروى
غلته بالدماء؟ كلا، وإنما النجوم وحدها هى التى تبعث على
اعجابه : فالشمس التى تحيى وتوقظ المخلوقات هى التى
تعطى القوة لأجسامهم كما تنشط أفكارهم ؛ هكذا تأله القمر
وتألهت النجوم التى تضيء ليلالى الصحراء، تلك الليالى الممتعة
للغاية بعد حرارة النهار الملهبة، وديانة كهذه كانت أقرب بكثير
من أية ديانة أخرى لكى تسمو بالإنسان حتى يدرك الكائن
الأسمى.

وفى واقع الأمر، فكل شىء فى السماء لا نهائى، يشمل
نظام يدعو إلى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى؛ أما هنا
على الأرض فكل شىء محدود، يبدو وكأنه متروك لقدر أعمى ،
فالبحر ، والأرض ، والهواء ، والظواهر التى تصدر عنها
والتي لا يمكن للمرء ان يتنبأ بها ؛ وكذلك ضروب الجمال فى
الريف، وفنون المدن، والشهوات الانسانية فهذه كلها أمور
محددة ومتميزة لحد يكون من العسير معه عليها أن تولد فكرة
السبب الأوحد، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك، فإن

مراقبة النجوم تكشف عن التشابه القائم بينها على أوسع نطاق، وسرعان ما تبدو حركتها المنتظمة التي تخلع النقاب عن مواضعها نتيجة لارادة عليا، ودائمة.

اذن فقد كانت الآلهة التي اصطنعها الانسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض أما طيبة وأما شريرة ، تدعو إلى المحبة او تبعث على الأسى، لكنها كانت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، أما حين رفع الانسان بصره نحو السماء، فقد اهتدى إلى اله واحد، لا نهاية لقوته وحكمته : فكرة سامية، وهي حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكائن الأسمى، فانما تجعل من العبد المكبل بالأغلال حرا، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتهنتا بعد ، وبالدرجة الكافية، روحه حتى ليرى في أولئك الذين يزعمون لأنفسهم أنهم سادته ، صورة من الرب.

أما ابرام ، ابراهيم أو ابراهيم ، كما شاء الناس أن يسموه، فيبدوا أنه هو الذي بشر، بأكبر قدر من الحماسة عرفته العرب ، بوجود إله واحد ، ليجعل عبادته تحل محل

عبادة النجوم^(٥). ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب، ؛ ففي حين لا تكاد تعرف اليوم، اللهم الا لاشخاص معدودين ، أسماء مثل أتيل* وجنكيز خان ، وكل أولئك الملوك الذين ظنوا أنهم قد ملئوا العالم بأسمائهم، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القرون التي انقضت منذ تحول جسده إلى رماد ؛ فالطفل الذي يبدأ في تعلم القراءة يتأثى بالفعل اسمه، كما أن المسيحي واليهودي والمسلم يطلقون على الاله الذي يعبدونه اسم رب ابراهيم ، صحيح أن بعض العلماء النابهن يعتقدون ان غالبية الشخصيات الشهيرة في الأزمنة البطولية ؛

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد «العلی» ومن بينها شعب شاليم (سفر التكوين، الاصحاح ١٤)، وان كان ابراهيم قد أعطى روعة خاصة لهذه العقيدة، عندما خلصها من كل ماكان من شأنه أن يشوه بسلطانها. * أتيل ملك الهون الذي انتصر في عام ٤١٥ على أباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال (وهي المنطقة المحيطة بجبال الألب وتشمل شمال ايطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الرين، وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقاتلة) ولكنه لقي الهزيمة في سهول قطالونيا عام ٤٥١ بالقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٤٥٣. (المترجم).

الألسيد والجازون* وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون فى تاريخها إلا تاريخ الأجرام السماوية ، ومهما يكن حظ افتراضاتهم هذه من الحذق فليس بمقدورنا أن نقبلها لأنها تبدو لنا متعارضة مع مسيرة العقل الانسانى، ومع ما نلمسه نحن كل يوم. لقد كانت للإنسان أساطيره قبل أن تكون له علاقة بعلم الفلك ، بل أن ما حدث - فى معظم الأحيان - هو أن النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال، بأسماء تذكر بأحداث تمت على الأرض، وفى النهاية، فإن الإنسان حين يؤله كائنات بسيطة فانية، ويغضى فعالها بقناع من الرمز، حين ينسب إليها أعمالا لايمكنها أن تتحقق إلا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصداقية الدينية (ما يؤدى إليه الدين من قابلية خاصة للتصديق أو الايمان) ، تلك التى تسهب أو تضخم من أفعال البشر الذين تجعل منهم آلهة أو أولياء أو أنبياء وتنسب إلى مقدرتهم أو إلى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المتخيلة أو

* Les Alcides ، أحفاد هيرقل، و Les Jansons هم أبناء جازون ابن ايزون ملك يولكوس Iolcos ؛ وكان جازون قد قاد أبطال الاغريق (الارجوتوت) للحصول على جزات الذهب من كولشيد وهناك أحبته ميديا ابنة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها، لكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سيزيف، وانتقام ميديا لنفسها بأن عملت على دمار سيزيف وخريوس وطفليها. (المترجم).

الحقيقية.

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ فى كل مكان، فلقد راقى
الأعجوبة للبشر على الدوام، ولسوف تظل تغريهم إلى الأبد،
ولدينا كل يوم ألوف الأمثلة على ذلك. فلنتعلم كيف ننحيها
بحكمة عن كل رواية، ولكن لنحذر فى الوقت نفسه من أن نقع
فى تطرف آخر، مقابل، بأن ننكر فى رعونة بالغة الوقائع
التي تختلط بأحداث خارقة، وماذا نقول فى هذا الذى يخلص
من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت فى الأجواء
عندما زحف قسطنطين ضد ماكزانس* ان هذين الحاكمين لم
يوجدا على الإطلاق ؟ أما عن ابراهيم، فإن ما يحول بصفة
خاصة دون أن ننظر إليه بإعتباره مخلوقا رمزيا يمكن أن
يرمز حسب فكرة قديمة عن نشأة الكون إلى بعض خواص
المادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسمى، هو أنه لم يحدث
أن اتخذ منه أحد فى أى مكان على الإطلاق إلها أو واحدا من

* ماكزانس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ إلى ٣١٢ وقد غرق فى نهر
التيبر بعد أن منى بالهزيمة عند أسوار روما على يد قوات قسطنطين الأول
امبراطور روما من ٣٠٦ إلى ٣٣٧، وأدى انتصار الأخير إلى اقتناعه بضرورة
جعل المسيحية دينا رسميا للامبراطورية، ثم أصدر فى عام ٣١٣ مراسيم
ميلانو التي تنص على حرية العقيدة الدينية، ثم نقل عاصمته إلى بيزنطة
(القسطنطينية). (المترجم).

سلالة اله، برغم أن زهو كثير من الشعوب كان شغوفاً بذلك، وبرغم أن عبادة الأوثان التي انغمسوا فيها كانت تحبذ مثل هذه الفكرة؛ وأخيراً فإن اسم إبراهيم قد جذب إلى مكة، منذ زمان ضارب في القدم، شعوب الجزيرة العربية، فقبر محمد نفسه في المدينة ليس بالنسبة للمسلمين أنفسهم سوى شيء ثانوي في طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة، فهذا (المعبد)، في رأى العرب، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الإله الحق، وهم ينسبون بناءه إلى إبراهيم وإسماعيل، ويبدو أن ديودور الصقلي كان على معرفة به عندما يذكر أنه "يوجد على شاطئ البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب"^(٦) وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وأزال الأوثان^(٧) التي أقامها الناس

(6) Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود، وينتظمه اليوم جذار في إحدى زوايا الكعبة، هو الوثن الوحيد (كذا^١) من أوثان الكعبة الذي حظى احترام محمد، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد أى شكل إنسانى أو حيوانى، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخام أو غير المصقول كان مخصصاً - قبل مجئ العقيدة الإسلامية - لعبادة الشمس، ومن المعروف أن الشمس كانت تعبد في سوريا على هذه الصورة، وأن روما قد شهدت في عصر هليوجابال حجراً أسود بسيطاً يتصدر آلهة إيطاليا واليونان التي كانت تتجسد في أعظم أعمال النحت، فوق جبال بالاتان. وقد يكون من المثير أن نبحث عن الدافع الذي قد يكون وراء عبادة أروغ النجوم وأكثرها بريقاً ولعناً في أكثر الأشكال خشونة وأكثر الألوان قتامة، فلعل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية، وبهذا يكون الناس قد تصوروا أن كرة ملتهبة تهبط من السماء تصحبها =

لها بين جدران الكعبة المقدسة، فقد احترم الأثر القديم الخاص بهذين الأبوين؛ كما كرس القرآن عملية الحج القديم إلى مكة تخليدا لاسميهما القديمين والمقدسين، ولعله قد تم كذلك بقصد سياسى يهدف إلى ربط الأمم التى ستدين للإسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة ؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم.

كذلك كان العبرانيون ينظرون لإبراهيم باعتباره زعيما لجنسهم، وهو ما يتطابق مع شهادة العرب الذين يشكل

= ضجة مفزعة لا بد أن تكون قطعة من الشمس ولا بد كذلك ان تتال الاحترام والولاء من البشر الفانين؛ وبالمثل فانهم قد رمزوا بها فى كثير من الأديان إلى الأشياء بالغة الحقارة والدناءة عندما يظنون أن هذه الأشياء تنتمى إلى اله أو قديس.

ولا يزال حجر الكعبة (الأسود) حتى اليوم موضع تقديس من جانب المتعبدين المسلمين، فعلى الحجاج أن يطوفوا به سبع مرات؛ أما أولئك الذين لا يستطيعون ان يقبلوه فيجاهدون كى يلمسوه باليد على الأقل؛ وهو من بين كل "الأحجار" المعروفة أكثرها قدما وأكثرها حظا من التبجيل والاحترام. تعقيب : ينهار زعم المؤلف من أساسه اذا ما استعدنا قصة إعادة بناء الكعبة فى حياة الرسول (ص) فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة، وعلى يد قبائل قريش فمجتمعة وبإادر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسما للخلاف بين هذه القبائل .. إلى آخر القصة المعروفة، أما إزالة الأوثان فلم يتيسر للرسول (ص) إلا فى العام الثامن من الهجرة. عند فتحه لمكة، ولم يكن الحجر الأسود أحد هذه الأوثان كما يزعم المؤلف الذى تبدو معلوماته عن الاسلام وتاريخه بالغة القصور. والقيمة الحقيقية للحجر الاسود، كما فسر لى =

العبرانيون، في رأينا، واحدة من أقدم قبائلهم^(٨). وتتباهى أمم كثيرة في الشرق، في الحقيقة، بأن إبراهيم هو واحد من أجدادها؛ وإذا نحينا جانبا الرأي القائل بأن هذه الشخصية، لهذا السبب، لم توجد قط، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين، فإننا نرى فيه، على العكس من ذلك، شهادة على شهرة لم تكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من أساس واقعي؛ فلقد تنازعت مدن كثيرة على شرف انتساب هوميروس بمولده اليها، فهل يمكن القول بأن هذا الشاعر، لهذا السبب، لم يكن موجودا قط؟ من ذا الذي لا يعرف زهو وخيلاء البشر؟

= أحد العلماء الأجلاء، هو أنه حجر أسود بين أحجار بيضاء. وأنه يحدد بدء الطواف بالكعبة ويسر بالتالي تعداد مرات الطواف بدقة، وهذا شرط أساسي في مناسك الحج. (المترجم).

(٨) نجد في التوراة أن غالبية العشائر الرحل التي كانت تقطن صحراوات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمي إلى اسماعيل أو إلى عيسو، كانت تشترك في أصلها مع العبريين أو كانت تتحد معهم برباط الدم، ولا تزال تشهد شطآن الفرات، كما شهدت شواطئ النيل والأردن، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم النوعي. العرب البدو، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الأسباط أو العشائر الأول؛ ولأن العبريين قد سكنوا جزءا من أرض الكلدانيين يعدون من الكلدان؛ كما أن البدو الذين أشرنا إليهم للتو ليسوا فرسا ولا مصريين ولا سوريين؛ فضلا عن ذلك، فلا يهمنا كثيرا أن نعرف ما إن كان العبرانيون هم من نسل العرب أو كان العرب هم الذين جاءوا من أصلاب اليهود؛ ويكفي أن نعرف أن لهم أصلا مشتركا وتقاليد وعادات متشابهة.

والشعوب، مثلها مثل الأفراد بصفة خاصة، يهتبلون بنهم واضح أقل الشواهد احتمالا لبلوغ أصل قديم ضارب في القدم، وبعد أن ينجحوا في خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا أنفسهم ؛ والخطأ الذى يحظى بالاعجاب سرعان ما لا يعد بعد خطأ.

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين، فى نقاطه الأساسية، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس. ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وأمينه عن حياة أحد مشايخ الصحراء، فإن هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجافى العقل؛ وهكذا نجد ابراهيم، طبقا لأقوالهم، قد رفض حين جاء إلى الدنيا صدر أمه ووجد فى أصابعه هو غذاءً رباتيا. فمن أحد أصابعه كان يتدفق اللبن ، ومن اصبع آخر تدفق العسل، وعندما بلغ شهره الخامس عشر كانت له قامة رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستنفذ مخازن حبوبه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من أجله إلى دقيق، وقد أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير وأن

يمزقها اربا وأن يوزع هذه الأشلاء فوق أربعة جبال وأن
ينادىها فتجمعت أشلاء الطيور على صوته وطارت نحوه؛ وحين
ألقى به فى لهيب متقد فقد لاطفته النار بدلا من أن تلتهمه*.

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية، الصببانية
بخيالها الفاسد لدى الشرقيين، فهناك نص يتميز بنبل
بساطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : "وبينما كان
ابراهيم يمشى مع أبيه أثناء الليل، وهو بعد طفل، رأى فى
السماء نجوما ، من بينها - مع نجوم أخرى - كوكب الزهرة
الذى كان يعبده كثيرون، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد
العالم، ولكن بعد بعض من الوقت والروية قال لنفسه: أرى هذا
النجم يغرب ويختفى، فلا يكون هذا اذن هو مدبر الكون، ونظر
كذلك للقمر فى تمامه ثم قال : لعل هذا هو خالق كل شىء وهو
نتيجة لذلك ربى، ولكنه عندما رآه ينزل عند الأفق مثل الكواكب
الأخرى أصدر عليه الحكم نفسه. وبعد أن عكف على التأمل

* يلاحظ القارئ ولا بد أننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة تماما، وهو
على هذا الأساس يرفض الأخذ بكثير مما نعهده نحن من المسلمات.
(المترجم).

والتفكير بقية الليل بطوله، وجد نفسه بالقرب من بابل عند شروق الشمس، ووجد أعدادا لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولا بد على الاعجاب وسأخذ منه خالقا وسيدا لكل الكون، ولكننى تبينت أنه ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى، ليست الشمس اذن خالقى ولا الهى ولا ربى. وبعد ذلك رأى ابراهيم النمرود جالسا على عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف، وفقا لمراكزهم، فرقة من العبيد رائعى الشكل من هذا الجنس وذاك، وسأل ابراهيم على الفور: من هذا الشخص الذى يعلو الآخرين على هذا النحو، فأجابه والده : هذا هو رب كل الذين تراهم محيطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيه ربهم. وعندئذ تأمل ابراهيم النمرود، وكان بالغ القبح وقال لهم: كيف يمكن أن يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه فى جمالها؟ وكانت هذه هى المرة الأولى التى بدأ فيها ابراهيم يسعى كى يحرر أباه من أوهام الوثنية، ويدعوه إلى وحدانية الله خالق كل شىء^(٩).

(9) D'Herbelot, Bibliothèque Orientale.

الفصل الثانى

عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر (١٠)

كان العبرانيون فى أقدم مراحل تاريخهم، يشكلون جزءا من هذه الشعوب الجوبة التى - على الرغم من كونها ذات أسماء مختلفة، ومع عادات وتقاليدها متشابهة - لم تكن تكف عن الإستحواز على بعض مناطق فيما بين الفرات والنيل.

وهم يستمدون أسمهم من عابر، وهو اسم أحد أجداد إبراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتخاذ اسم أحد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الأبناء شائعة لدى العرب المحدثين.

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا، شأنهم شأن البدو، فى الحياة الرعوية، وكونوا مثلهم منشآت زراعية قليلة

(١٠) نرجو من الذين سيقراءونا ألا يغيب عن ناظرهم مطلقا أننا لسنا هنا بصدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قد وجد، أو أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع فى حقيقة الأمر، ولكننا نريد أن نقول فقط أنه من المحتمل، أو على الأقل، من الممكن أن تكون الأمور قد جاءت على هذا النحو الذى نسوقه نحن.

الدوام، فقد تركوا أرض كلدان كى يمضوا إلى منطقة من أرض ما بين النهرين تابعة لسوريا، وكانوا فى ذلك الوقت وثنين ، وكان تارح ، والد ابراهيم، من ناحور وأران، على رأس قبائلهم. وعند موته انقسم القوم : فظل بعض فيما بين النهرين تحت حكم ناحور، وواصل الآخرون مسيرتهم إلى ما وراء الفرات ، ابراهيم ولوط، ولدا أران ، وتكرر حدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالأسباب التى حتمت حدوث الانقسامات ، هناك تلك الديانة الجديدة التى كان قد بشر بها ابراهيم. وهى ديانة لم يتبناها فى الواقع أولئك العبرانيون الذين ظلوا فى بلاد ما بين النهرين. وقد أشار سفر التكوين إلى هذا الدافع الذى يكمن وراء الانقسام، اذ نرى فى هذا السفر أن ابراهيم قد انفصل عن أخيه^(١١) استجابة لوى مقدس. وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية، وطبقا لذلك فقد حدث أن ابراهيم، كى

(١١) " وقال الرب لابرام اذهب من أرضك وعشيرتك، ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وأبارك مباركك ولاعنك ألعنه" سفر التكوين الاصحاح الثانى عشر.

يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب إلى جوف الصحراء. ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التي انقسمت على هذا النحو، ويكفى للتدليل على ذلك زواج ابن ابراهيم (اسحاق) من (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور، وزواج يعقوب من بنات لابان بن بتوئيل^(١٢).

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد إلى سوريا. وهناك انفصل عن (لوط) ابن أخيه، وبعد مرور وقت قصير انتزعه من أيدي أعدائه (أعداء لوط) ، وينظر بعض الكتاب إلى المعركة التى شنها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح، ويرغم ذلك فليس فى هذا الأمر ما يمكن أن يعد خارقا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تقطنها. وفى واقع الأمر فإن ما هو أكثر من ذلك طبيعة - أى أنه أمر عادى للغاية - أن نرى رؤساء أو

(١٢) توجد عند العرب اليوم هذه العادة نفسها، عادة تفضيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها.

ملوكا أمثال ملوك ورؤساء شنعار وعيلام والاسار (بشدة على اللام) وجوييم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم وبالع (أو صوغر). وهذه الأسماء الأخيرة هي أسماء مدن ذائعة الشهرة ، ويمكن الظن بأن الأسماء الأخرى تشير إلى بعض فصائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الامبراطورية (الآشورية) ، كان شيوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة في حياته في حالة حرب مع سلطان امبراطورية الترك القوية، ومع ذلك، فمهما تكن قوة الأمراء الذين أخضعوا البنتابول الأردني^(١٢)، فقد استطاع ابراهيم، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عاثر واشكول وممرا الأمورى أن يفاجئ وأن يلحق الهزيمة بالمنتصرين. ويقدم لنا التاريخ عددا لا حصر له من أحداث مشابهة؛ فقد استطاع خالد، على رأس ثلاثة آلاف عربى أن يحطم ويشنت في عصر هرقل وبعد معركة من أشد معارك

(١٢) منطقة خماسية المدن (أى بها خمس مدن)، ويطلق اسم البنتابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة، ويتكون البنتابول الأردني من مدن سدوم، عمورة، أدمة، صبوييم، بالع (التي هي صوغر كما تذكر التوراة).

التاريخ بأسا وعتادا جيشا يتكون من عشرين ألفا من الرجال من خيرة جيوش الامبراطورية (الرومانية)؛ واستطاع على بك ضاهر في عصر أقرب، بخمسمائة من البدو أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين ألفا من الدروز؛ وعلى ضفاف الأردن، عند سفح تل طابور، شنت ألف وخمسمائة جندي فرنسي بقيادة كليبر Kleber، أمامهم جيشا " ينتمى إلى مائة شعب مختلف " كما يقول أهل البلاد " ويساوى في عدده نجوم السماء ورمال البحر " (١٤).

وفى الحقيقة فإن اسم ملك الذى تمنحه التوراة لرئيس مدينة بمفردها أو شيخ قبيلة واحدة قد أمكنه أن يتوج قصة انتصار ابراهيم بهالة مبهرة، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقدرة العظيمة (والملك الشاسع)، لكن الكلمات نفسها لاتعنى فى كل الأحوال الأشياء نفسها، وتظل معانيها تتغير فى مختلف البلدان ؛ فشيخ بضعة ألوف من الرجال فى الشرق قد يتسمى باسم أمير الأمراء (أو ملك الملوك)؛ وفى حين أن لقب

(١٤) قدر هذا الجيش بنحو خمسين ألف رجل أكثرهم من الفرساني.

ملك هو ما نطلقه نحن على لويس الرابع عشر أو بطل ترموفيل Thermophyles* فانه يخلع فى الساحل الافريقى على رئيس بضع ضياع صغيرة من ضيعات الزنوج؛ وبالمثل فقد تلقى شيشرون التحية من الفرق العسكرية التى أطلقت عليه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية، ومع ذلك فليس هناك من يخلط بين سطوة هذا المواطن الفاضل وبين القوة الغاشمة لأولئك الطغاة الذين رفعوا عروشهم عالية فوق أنقاض جمهورية روما.

وبعد أن خلص ابراهام لوطا، عاد إلى بلوطات ممرا الامورى؛ وقد حدث ذلك بعد سنوات عديدة من الوقت الذى حددته التوراة لدمار سدوم وعمورة الذى ربما قد تسبب فى

* أو الأبواب الحارة، ممر شهير فى تساليا، حاول عنده ليونيداس الأسبرطى ومعه ثلاثمائة من الأسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كسركسيس، وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنة من الرجال تعتزم حقا أن تقطع عليه الطريق فقد كتب إلى ليونيداس رسالة لاتضم إلا هاتين الكلمتين : "سلم أسلحتك" فكتب إليه الأسبرطى تحت كلماته " تعال خذها"، ولكن أحد الخونة أرشد الفرس إلى ممر وسط الأحراش يسمح لهم بالاحاطة بالجبل الذى كان يتحصن فيه ليونيداس، وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت، دعا رفاقه إلى وجبة طعام متقشفة ثم قال لهم " فى هذه الليلة سنتعشى عند بلوتون اله الموتى ". (المترجم).

حدثه صاعقة رعد أو ثورة بركان.

وتتطابق الرواية التي تحكى إقامة ابراهيم بعد ذلك فى ارض أبيمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه اليه هذا الزعيم العبرانى من ثيران وماعز، مع ما يحدث فى أيامنا هذه عندما تريد قبائل جوبة أن تقيم فى ارض لا تملكها.

وقد خلف ابراهيم أبناء عديدين أشهرهم اسماعيل واسحق. وقد أصبح الأول بفعل جسارته زعيما لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية، وحملت فى ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتنادوا باعتبارهم أبناءه^(١٥)، أما الثانى فقد أعقب والده، وترجع جولاته وحروبه وتحالفاته وأخيرا سيرة حياته إلى الوجود الخاص والسياسى لزعيم من زعماء البدو.

وبعد موت اسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التي اتبعت الأخير بعد ذلك (أو نسله كما تذكر التوراة) اسم الأدويين ؛ أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من

(١٥) انظر دراستنا عن القبائل العربية فى صحراوات مصر، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ٥٨٠.

ميراث أبيه، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به، وبشكل نهائى،
باسم العبرانيين أو الاسرائيليين. وتجيء التسمية الأخيرة من
اسرائيل، وهى الكنية التى كان يحملها يعقوب منذ عودته من بلاد
ما بين النهرين.

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا أشهرهم يوسف، وإن أستعيد
هنا قصته المؤثرة، فكل الناس يعرفونها، ويعرفون أنها تعبر
بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق. وفيما بعد أصبحت
أسماء ولديه وأخوته تشير إلى أسباط بنى اسرائيل.

كان يعقوب قد أصبح شيخا كبيرا حين الجأته المجاعة إلى
ترك ضواحي بير سبع والذهاب إلى مصر حيث حصل من فرعون
على اذن بأن يستقر فى أرض جاسان.

وكانت اسرة ملوك الرعاة تشغل فى ذلك الوقت عرش مصر،
ونعتقد أننا نجد الدليل – فى الترحيب الذى لقيه ابراهيم من قبل،
وفى تنشئة يوسف، وبالسماح ليعقوب وأبنائه بالاقامة فى مصر –
على تجافى الحنق والتطير اللذين كان يمكن أن يستشعرهما

الحكام من العنصر المصرى بالنسبة لرعاة القطعان^(١٦).

وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نجده فى الكتب المقدسة منذ موت يوسف حتى مولد موسى،

(١٦) مانيتون، يوسيفوس، رد على أبيون، الكتاب الأول، الفصل الخامس. وقد كان مانيتون مصرياً من طبقة الكهان، وكان يشغل منصب كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس، عندما كتب تاريخ مصر، ويبدو لنا مؤلف كهذا أنه يستحق على أقل تقدير نفس القدر من الثقة التى تحظى به مؤلفات هيرودت وديودور، برغم قدمها؛ فمهما تكن المجاملة التى أبداهما الكهان المصريون نحو هيرودت كبيرة، فإن المعلومات التى جمعها منهم عن تاريخ مصر لا يمكنها أن تقارن بمؤلف مستمد مباشرة من المخطوطات الأصلية عن طريق رجل يستطيع، حيث هو موكل بحفظها، أن يقارن بينها وأن يرجع إليها وأن يدرسها بعناية لئلا يكون فى عجلة من أمره، شأن مسافر متسرع يريد أن يعرف كل شيء عن البلد الذى يجتازه، تاريخه، فلسفته، عاداته، جغرافيته، تاريخه الطبيعى .. الخ.

ويتهم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودت، مدفوعاً بشعور من عاطفة تشيع عند رجل يتجاوز دوره كمترجم، يتهم مانيتون بالجهل فى كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيرودت، دون أن يسترعى انتباهه أن مانيتون كان يعرف مؤلفات هذا الأخير، وأنه اكتشف فيها أخطاء عديدة، وأنه بهذه الطريقة على الأقل لم يبتعد عما جاء بها بسبب جهله. وأخيراً فإن المسيو لارشيه ينسب معرفة اللغة المصرية القديمة لمواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس؛ ويعطى هذا الحق للأول لأن هذا الرحالة يقرر أن الكهنة المصريين قد قرعوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان أن يشرحوا له باليونانية النصوص باللغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها، ثم ينكرها على مانيتون بسبب العصر الذى كان يعيش فيه، ومعنى ذلك فإن أثر رشيد (حجر رشيد) يبرهن على أن اللغة القديمة فى عصر البطالمة، بل حتى الكتابة الهيروغليفية نفسها، كانت لاتزال معروفة من كهان مصر.

=

وإن كان لابد لنا أن نحاول في هذه اللحظة السريعة حول نشأة وسقوط أسرة الملوك الرعاة في مصر، أن نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين.

عن فتح مصر على يد الرعاة، وعن العبرانيين منذ وفاة يوسف حتى هروبهم إلى الصحراء

تتم هجرات الشعوب في معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل إليها معه القيود، أكثر مما تتم سعيا وراء مناخ أفضل؛ وفي معظم الأحيان كذلك، يقوم هؤلاء الفارون، حين يصبحون غزاة بالضرورة، بتأسيس امبراطوريات قوية.

ولكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة، وحده، أمة ما بأن تحمل السلاح، فإنها قد تستطيع أن توسع أملاكها بشكل هائل، لكنها لاتغادر وطنها، فالارتباط بمسقط الرأس أمر أكيد في كل زمان ومكان، وعندما تشكل الأقاليم المغلوبة والمستعمرات

وأخيرا فإن هذا الاعتراض الذي تكرر مرات كثيرة من أن مانيتون لم يستطع أن يرجع إلى الحوليات المقدسة التي انتزعها ارتكسر كسيس - أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر في الأولياد السابع والخمسين يسقط من تلقاء نفسه إذا التفتنا إلى أن ديودور، الذي يقص علينا هذه الواقعة، يضيف بأن باجواس، المقرب من ارتكسر كسيس قد رد إلى الكهان المصريين وثائقهم، في مقابل مبلغ كبير من المال.

البعيدة دولا مستقلة فإنها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم، تستطيع المصالح أن تعكرها فى بعض الأحيان لكنها لاتقدر أن تنتهيها بشكل تام إلا بعد قرون طويلة.

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق. فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هى روح الغزو أو هى ضرورة دفع عدو قوى هى التى حملت هذا الشعب الرعوى على غزو الأراضى الخصيبة التى يروىها النيل؛ وان كان المرء يستطيع طبقا للمبادئ السابقة أن يستخلص أن فتوحات الآشوريين، بامتدادها إلى جنوب الفرات، كان لابد لها أن تدفع إلى مصر بالقبائل العربية البدوية، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية. ويتطابق هذا رأى مع شهادة مانيتون، حين يقرر أن أول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر قد وضع الجزء الأكبر من جيشه على الجبهة السورية لأنه كان يخشى قوة الآشوريين.

وقد تبنى الرعاة العرب، دون جدوى، خلال امتلاكهم الطويل لمصر، غالبية طقوس الديانة المصرية، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم، وبصفة خاصة تحالفهم مع قبائل الصحراء الذين واصلوا التضحية لآلهتهم بحيوانات يقدسها المصريون ، جعل

المواطنين من أهل البلاد ينظرون اليهم بكراهية وازدراء.

وقد أدى انتشار أحد الأمراض، وهو البرص أو الجذام، الذي أصبح أكثر شيوعا في مصر - لأن المنتصرين كانوا ، ربما ، يجهلون مبادئ الصحة التي تدعو إليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحي - أدى بالقدامى من أهل البلاد أن يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة، وهو الشيء نفسه الذي فعله أهالي نابولي عندما أطلقوا اسم أمتنا، في القرن الخامس عشر على مرض وافد، وذلك بفعل ما كانوا يكتونه لنا من أحقاد. وقد أوقع اسما "المجنومون او الأنجاس"، اللذان كان المصريون يستخدمونهما سرا للإشارة إلى المنتصرين عليهم، المؤرخين في أخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء أن الأمر هنا يشير بالفعل إلى أناس أصيبوا بالجذام، كما لو كان باستطاعة نوى العاهات والمرضى أن يكونوا هيكلا أمة وينشئوا جيوشا قوية !

أما ملوك مصر الشرعيين، الذين لانوا بالصعيد، فقد كونوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل أحدهم ويدعى أليسفراجموتوفيس، ولعل ذلك قد تم بمعونة من الأثيوبيين وبدعوة من الساخطين، نزل نحو ممفيس ، وأحرز انتصارات هائلة على العرب واضطرهم إلى

أن يركزوا قواهم في أفاريس، وهي مدينة بالغة القوة تقع في أقصى الشرق من مصر السفلى*.

وباختصار، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة في مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس أسرتهم وتربيعها فوق عرش الفراعنة، وإذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس أو طيبة قد لزموا الصمت بشكل تام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم إلى هيروdot ، فقد كان ذلك دون ريب. لأنهم كانوا يضعون في عداد ملوك مصر أولئك الأمراء من الجنس المصري الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن، إذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صمتوا عنهم ملوكا غاصبين.

أما تحيموسيس (أحمس)، ابن وخليفة اليسفراجمو توفيس، فقد حاصر في أفاريس بقايا جيش الرعاة، وعندما لم يتمكن من

* يقول الأستاذ محمد رمزي في قاموسه الجغرافي للبلدان المصرية، الجزء الأول الخاص بالمدن المدرسة، من مدينة أفاريس أو أواريس مدينة أنشأها الهكسسوس جنوبي بيلوز (الفرما)، وأسموها هات أورات Hat Awrat ، ومنها اسمها أواريس، وقد اتخذها رمسيس الثاني سكنا ومعسكرا له، وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس. وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحير أو الهير، وظن بعض الباحثين أنها هي مدينة تيكو التي أسماها الرومان هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة. (المترجم).

الاستيلاء عليها، وافق أن تخرج الحامية من أرض مصر مع كل ماكانت تملكه.

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين - وكان هؤلاء بالغى القوة فى آسيا - فقد استقروا فى جبال الجودية حيث أسسوا مدينة جيروزاليم (أو : اورشليم)^(١٧) ؛ وان كان هذا الفريق من الأمة التى أدى إستحوازاها على مصر لفترة طويلة، إلى تبعثرها بالضرورة فى كل البلدان، قد اضطر للخضوع وأن يستسلم بدوره لما يمليه عليه قانون المنتصر.

أما العبرانيون، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر، مأوى وحماية، بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد الرعاة (العرب) فقد واصلوا سكنى هذه المنطقة، وجرت عليهم نفس أقدار المهزومين، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من أحقاد نحو هؤلاء الرعاة، وأخذ الوطنيون يشيرون

(١٧) كانت هذه المدينة فى واقع الأمر موجودة حين دخل الاسرائيليون، بعد وفاة موسى، أرض كنعان، لكنهم لم يستحوزوا عليها بشكل مطلق إلا فى عهد داود.

إلى هؤلاء وأولئك، دون موارد ، باسم الأنجاس أو المجنومين.

وقد ظل الأنجاس، وهي تسمية كان يندرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاية الدينية، يتمتعون في مصر، مع ذلك، بقدر محدود من الحرية حتى عصر أمينوفيس، والد سيزوستريس الشهير؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة ضئيلة الأهمية، على تخوم صحراء ، أو في مستنقعات مصر السفلى، وهو أمر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو. وقد آمن أمينوفيس، يدفعه في ذلك الكهان ، انه سوف يتقرب إلى الآلهة ، باضطهاده للرعاة، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم - في رأيه - خالصة نقية، فجمع عددا كبيرا منهم، استخدمهم في قطع الأحجار من جبل المقطم.

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية، والمتطيرة، أمينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب إلى أرض جاسان ؛ وهناك اختاروا رئيسا لهم، واحدا من كهنة هليوبوليس اسمه أوزرسيف، كان قد نفى معهم بسبب آرائه الدينية دون شك؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من

اضطهادات واقعة أو يخشون من حدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها، وقد أعطى أوزرسيف لهذه الألوف من المنشقين المصريين، وللقوم من جنس الرعاة، ديانة خاصة كانت بالضرورة خليطا من دياتى هذين الشعبين، وأمر هؤلاء ألا يتصاهروا إلفيما بينهم، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين، أباح لأتباعه أن يأكلوا حيوانات كانت تعد مقدسة عند هذا الشعب ، وأصدر تعليماته لهم بهدم تماثيل آلهة مصر.

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب أميتوفيس، والحروب والثورات ونوبات الغزو الأجنبي التى تبحت عنها أن اضطر عدد كبير من العائلات أن تبحت لأنفسها، ومعها آلهتها عن وطن جديد. وعلى هذا، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتملة التى نشأت خلالها مستعمرات عديدة فى بلاد الإغريق؛ فإن رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هى، على وجه الدقة، نفس الديانة المصرية القديمة فإننا نضطر إلى الظن بأن مؤسسها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتفوا جميعا - وهذا مرجح - معتقدات أوزرسيف، والذين كانت لهم، بالضرورة، فى

عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين^(١٨) ، باعتبارهم ينتمون أصلا إلى الشرق، وتطبعوا بهذه الخصال على ضفاف النيل بفعل سلسلة طويلة من الأجيال، وإذا لم يكن كتاب أريوس،

(١٨) في واقع الأمر فإن الاحتمال ضئيل في أن يكون المصريون قد أسسوا المستعمرات العديدة التي تنسب اليهم عادة، فهم الذين أغلقوا لوقت طويل للغاية أبوابهم في وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط إذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكتنون له الكراهية، كما أنهم أخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بمسقط رأسهم، لأنهم أثرياء، تجمعهم دولة وحكومة، وتتحكم فيهم الأساطير الدينية، لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة، فأمة تتكون من قبائل متفرقة يصعب عليها أن تظل متحدة؛ فالرؤساء القلقون أو الساخضون يتعزلون بأنفسهم، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر، لقد كانوا رحلا ومقاتلين، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة، على طريقة هؤلاء العرب - وهم من نفس جنسهم، وقدموا من نفس صحراواتهم - الذين حملوا معهم إلى أسبانيا، في القرن الثامن (الميلادي)، الفنون والعلوم التي أرادوا هم أنفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يمحو كل أثر لها، حين حرقوا مكتبة البطالمة (سبق لنا أن دحضنا هذا الافتراء عندما نقلنا رأي جاستون فييت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم في دراسة جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية - المترجم).

اذن فيبدو مما لا ريب فيه أن هؤلاء الذين نقلوا إلى اليونان فنون مصر، هم هؤلاء الرعاة الذين أدى بهم استحوازهم الطويل على مصر لأن يتمثلوا هذه الفنون. وهذا الرأي هو نفس رأي فريرييه Fréret وهو لا يسلب قط عن مصر العليمة مجد أنها أمدت اليونان بالبذور الأولى لحضارتهم، وهي بذور ثمينة نون شك، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان

=

ملك لاسيديمونيا إلى اونيّاس كبير أحرار اليهود، مزيقا قط، فانه يأتي ليدعم هذا الرأى : الذى يعطى العبرانيين وبعض أمم الأغريق ، أصلا مشتركا^(١٩).

وأخيرا فان علينا أن نجعل مولد موسى يتم فى عهد أمينوفيس هذا، وأن نضع فيه أيضا أول الاضطهادات التى لحقت بالعبرانيين، والذى تشير اليه التوراة.

وقد دفع الخوف من سطوة فرعون، وكذلك، ودون جدال، الرغبة فى الانتقام، أوزرسييف لأن يطلب من رعاة الجودية أن يلحقوا به، ليزحفوا معا لفتح مصر، وذكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الثرية، وبأن قد لحقت بهم (هناك) اهانات

= الناضرة، موطن ربات الفن والجمال حيث ارتقى الجنس البشرى لأسمى درجات النبيل والحرية والسعادة.

(١٩) واليكم ترجمة هذا الكتاب كما أورده المؤرخ يوسفوس " من ملك الأسبطين (أصل لاكيدايمونيا) أريوس أويّناى - تحية وسلاما. حدث ان وجدت فى بعض النقوش أن اليهود وأهل لاكيدايمونيا ينتمون لجنس واحد وأن الأخيرين ليسوا بغرياء عن نسل ابراهيم. لذلك فمن الأوفق - مادمنّا اخوة - أن نطلعونا على كل ما ترغبون فيه، ونحن من جانبنا سنفعل الشيء ذاته، ولسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا سواء بسواء، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة ، وان ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا، وهذه الرسالة مدونة فى صفحة مربعة الشكل وتحمل خاتما هو عبارة عن تسر يصارع ثعبانا".

ينبغي الاقتصاص فيها، وهرع أهالي أورشليم إلى أفاريس
استجابة لنداء اخوتهم، وانضموا اليهم، وحملوا على مصر قلم
يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبه، كما يقول مانيتون،
ولم يكتفوا باحراق المدن والكفور وتحطيم صور الآلهة، وانما قتلوا
حتى الحيوانات المقدسة، وأرغموا الكهان المصريين والعرافين بأن
يكونوا هم ذابحيها، ثم أطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم
امهاتهم.

وانسحب أمينوفيس إلى ما وراء الشلالات على حدود مملكته،
وثبت هناك بدعم من الأثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما يناوئ الرعاة؛
وفي نهاية هذه المدة جمع قوات كبيرة، ونزل إلى مصر السفلى
وهزم أوزرسيف، وطارده، ودفع نحو سوريا شتات جيشه.

وإذا ما صدقنا رواية مانيتون، فلا بد أن يكون أوزرسيف هو
موسى نفسه، ولا بد أن يعترف المرء أن التشابه بينهما شديد، بل
قد يكفي الافتراض بأن الجودية كانت قد تم غزوها على يد قبائل
أخرى، في الوقت الذي كان سكانها فيه يخربون مصر كي تفسر
اقامة الاسرائيليين الطويلة (تيهم) في الصحراء، وكذا الحروب
التي كان عليهم أن يخوضوها كي يعودوا إلى سوريا بعد أن تم

طردهم من أرض جاسان. ومع ذلك ، فإذا ما قبلنا ، فيما يتصل بالوقائع الأساسية ، أن يكون هذا الرأي محددًا للإطار العام لذلك الذي جاء في أسفار موسى الخمسة ، فينبغي القول أيضًا بأنه سيظل يوجد في قصة موسى، إذا ما تبيننا هذا الرأي، عدد هائل من الأحداث لابد أن تلقى بها جنبًا إلى جنب مع الأساطير. وفضلاً عن ذلك، فمن السهل أن نوائم بشكل أفضل بين ما جاء يكتب العبرانيين وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية؛ وهكذا نستطيع، على سبيل المثال، القول، مرتكزين على أسس كافية بأن جزءاً من الرعاة الذين هزمهم أمينوفيس قد ظلوا أسرى في مصر، حيث فرضت عليهم أقسى درجات العبودية، وأن القبائل الاسرائيلية، قد تلفتت فإذا بها ضمن هؤلاء العبيد.

فلنقبل إذن الفكرة القائلة بأن العبريين كانوا لا يزالون يقطنون مصر حين اعتلى سيزوستريس العرش.

ومع ذلك فإن المباحج التي تمتع بها المصريون في عهد هذا الملك الشهير تحول دون أن ننسب لعهد تلك الكوارث التي خربت هذه المملكة وأدت إلى تخليص شعب الله. لقد كان سيزوستريس شديد البأس، لحد لا يستطيع معه أن يخشى من هؤلاء العبيد

البؤساء، الذين عرف كيف يفيد منهم حين استخدمهم فى إقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ، وهى أعمال خلدته بأكثر مما خلدته فتوحاته.

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هيرودت فيرون فى حين يسميه ديودور سيزوستريس الثانى؛ لكن الابن لم يرث لا فضال ولا مواهب والده ، ويصوره التاريخ أميرا ضعيفا، متطيرا، يؤمن بالخرافات، وقاسيا. ويبدو أن يد الرب، على حد قول المؤرخين الدنيويين أنفُسهم، قد ثقلت عليه، ففاض النهر بدرجة غير مألوفة ودمر القرى والحقول وأفزعت العواصف والأعاصير والسيول الشعب، وأصيب الأمير بعمى البصيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التى تنذر بغضب السماء^(٢٠).

ونعتقد نحن من جانبنا أن فى عهد هذا الأمير - ولابد - تمت عملية هروب العبرانيين إلى الصحراء.

(٢٠) هيرودت، الكتاب الثانى؛ ديودور، الكتاب الأول.

هروب العبرانيين إلى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التي حاقّت بالرعاة، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية، وبعد أن كانوا بدوا تحولوا إلى قلاحين^(٢١) وارهقوا بالأعمال، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيزوستريس أن يتملصوا من العبودية، ومع ذلك، فحين لقوا بعض المعاملة الانسانية بلا ريب، تضاعفت أعدادهم، وحيث قد بدأوا يستوعبون حالتهم الجديدة، فقد كان كل يوم يمر، يجعل من العسير عليهم أكثر من ذى قبل أن يخرجوا (من مصر)، ثم ارتقى فيرون العرش وأثقل كاهل العبرانيين بنير من حديد^(٢٢)، فلم يجد هؤلاء البؤساء الذين كانوا يئنون فى صمت أية نهاية لآلامهم إلى أن ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبدوون وكأنما قد جاعوا خصيصا لتغيير أقدار أمتهم. وكان موسى عند طفولته قد جرفه الماء، وكان هذا فى عصر أمينوفيس، وأنقذت

(٢١) لاتزال تغييرات مماثلة تحدث فى بعض الأحيان فى مصر بين القبائل العربية التى استقرت فيها، انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ٥٧٩، (وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان فى مصر الوسطى). (المترجم).

(٢٢) سفر الخروج، الاصحاح الثالث، الآية ٧.

ابنته حياة الطفل العبراني، لكنها لم تكتف بما قدمته إليه من رعاية واحسان وانما أمرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم، ومن المعروف أن العلوم والفنون في مصر كانت في ذلك الوقت في أوج ازدهارها؛ واذ اضطر موسى بعد موت تلك التي أحسنت إليه لأن يتجو بنفسه لأنذا بالصحراء لقتله أحد المصريين، فقد فر إلى البحر الأحمر ليقيم بين عرب مديان (مدين)، وذكره نمط حياة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذي كان ابراهيم فيه يتجول في عزلة بقطعانه؛ وبدت له الحرية والاستقلال، برغم ضروب المخاطر وصنوف الحرمان أفضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة؛ وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين.

وعند قمة جبل حوريب، وسط البروق والرعود، وعلى مشهد البحر الهائج والصحراء الصموت، تأمل طويلا، في عزلة بعيدا عن البشر، مشروعاته الواسعة^(٢٣)؛ وفي النهاية رجع إلى اخوانه ودعاهم للهروب، وتذرع في ذلك عند فرعون بأنهم سيقدمون

(٢٣) نجد في حياة محمد (ص) خصوصية مماثلة، فقد كان ينشد العزلة في غار في جبل حراء، ويمضي هناك خمسة عشر يوما (كذا!) في حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته. وليست هذه وحدها فقط هي نقطة التشابه التي نجدها بين هذين المشرعين (كذا!).

أضحية في الصحراء : "فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا
اذبحوا لالهكم في هذه الأرض، فقال موسى لا يصلح أن نفعل
هكذا ، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا، إن ذبحنا
رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرموننا ؟" (٢٤).

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه أم يرفضه، هل
يخفف من شقاوات العبرانيين أم يضاعف منها، ويتأرجح الملك بين
هذا الموقف وذاك تبعا لدرجة الفزع الذي ينتابه كلما توالى
الكوارث التي كانت تفكك وتدمر دولته* وعلى الدوام فإن أفكار
الإنسان المسبقة وخرافاته تربط أقداره بنظام الكون.

ولقد وردت في ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذي تناول هذه
الفترة وقائع كثيرة، لكنها برغم خروجها عن كل مألوف، تتوافق
مع روايات المؤرخين الدنيويين^(٢٥) ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد،
فلا يزال الحواة هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة
تعد من قبيل المعجزات، فهم يستدعونها وينومونها ويخدرونها

(٢٤) سفر الخروج، الاصحاح الثامن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

* بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل من مصر
كما يشرح ذلك سفر الخروج.
(المترجم).

(٢٥) هيرودت ، ديودور .. الخ.

حتى تظن أنها قد ماتت، ويعلمونها كذلك كيف تنهض واقفة وتتبع سيدها على هذه الحال، ثم يخبئونها في ثنايا ثيابهم ويتلفعون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم؛ ولعل جراح مصر التي لا تتدخل تتمثل في مياه النيل، الصفراء والخضراء العكرة والضارة في بعض الأوقات، والتي يمكنها على نحو يكاد يكون ثابتاً، وحين تتغير أحوالها بغثة عاما ما، أن تروع الشعب، كما تتمثل في الحشرات من كل نوع* تلك التي تكثر بوفرة في بعض الأحيان في مصر وبطريقة مفرعة في كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة^(٢٦)؛

* يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع التي كثرت حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض ... الخ. (المترجم). (٢٦) يمكنني أن أذكر هنا، نقلاً عن المؤرخين العرب، سنوات كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتساقط من السماء، وأكتفى بأن أورد هنا واقعة كان المقرئ نفسه شاهداً عليها، وقد كتب في هذا الخصوص . أنه في العام ٧٩١ والأعوام التالية تزايد الدود الذي كان يهاجم الكتب والأقمشة الصوفية بشكل كبير في المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية وسرياقوس؛ وقد أكد له رجل أهل الثقة أن هذه الحشرات قد قرضت له ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل حمولة أكثر من خمسة عشر جملاً، وحين دهش المقرئ من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقاً لعادته كل الاحتياطات اللازمة كي يتأكد من الحقيقة. فشاهد بعيني رأسه أن الخسارة التي سببتها الديدان لم يكن (تقديرها) مبالغاً فيه، وأنها دمرت في الجهات التي تحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة، وقد شاهد بالقرب من المطرية جدران حديقة بها صدوع وتشققات طويلة وعميقة أحدثتها هذه "الحيوانات" الصغيرة. وفي نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة في حي الحسينية الواقع خارج القاهرة، فبعد أن أتت الديدان على كل مايؤكل وما يلبس .. الخ، وهو ما سبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها،

وفى الطاعون الذى يخرب هذه البلاد من وقت لآخر، ويبدو فى معظم الأحيان وكأنما يصر على افناء جنس دون آخر، وفى الرعود والبرد (بفتحة على الراء)، نادى الحدث حتى أنه لا يسمع بحدثهما هناك، وقد لا يحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله، فهما إذا حدثا لن يسببا سوى الفزع الشديد، وأخيرا فى أسراب الجراد التى تأتى من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين، وفى هذه الرياح المؤذية نفسها والتى لا يحس بها الناس فى كل أنحاء مصر، دفعة واحدة^(٢٧).

فلنجنب اذن من وصف النكبات التى حلت بمصر تلك

= هاجمت البيوت وقرضت العوارض التى تصنع السقوف حتى أصبحت هذه العوارض جوفاء تماما، وأسرع الملاك بهدم البيوت التى غزتها الديدان حتى كاد الحى أن يكون قد دمر دمارا تاما، ثم مدت هذه الحشرات نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التى تجاور بابى النصر والفتوح، ولم تكن تلفياتها هناك أقل عنها فى المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف الكعبة - عن ترجمة ايتان كارتير.

(٢٧) عندما تهب الخماسين، تصبح الشمس ذات صفرة كابية، وتنحبس أشعتها، وتزيد العتمة فى بعض الأحيان حتى يظن المرء أننا قد بتنا فى ليل شديد الحلكة، على النحو الذى رأينا بأنفسنا عند منتصف النهار، فى قنا، إحدى مدن الصعيد، ويورد بعض المؤرخين العرب، أنه عندما غزا السلطان سليم مصر، فإن السماء قد وهبته نفس "الخدمة" التى قدمتها لموسى، فقد حجبت سحباً كبيرة سوداء، مسيرة جيشه، عن عدوه طومان باي .

المبالغات الشاعرية المسموح بها، لشخص يحلوه أن يسترسل في وصف الظواهر التي استخدمها لتخليص شعبه وسوف نرى كل سطوة لها قد خبت، ومع ذلك فإن تتابع أحداث كثيرة غير مألوفة، برغم كونها مع ذلك ظواهر طبيعية، مع مالها من نتائج على قلب فرعون القاسى، يمكنه أن يعد برهانا قويا على حماية الرب.

فهذا الحاكم فى الواقع لم يستطع أن يقاوم شكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها، بعد أن أصابها طاعون فتاك، إلى رقيات "الأنجاس" المؤذية فاعتقدت الرعية أن إبعاد هؤلاء، سيجعل الآلهة أكثر لطفا بها: "قدعا - أى فرعون - موسى وهارون ليلا، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنثما وبنو اسرائيل جميعا"^(٢٨).

(٢٨) سفر الخروج، الاصحاح الثانى عشر، الآية ٢١.

مسيرة العبرانيين في الصحراء

حتى المنطقة التي عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان، ولا يمكن أن تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع أبيار الممتدة إلى الشرق من مصر نحو سوريا، لأننا نقرأ في سفر التكوين (الأصحاح السادس والأربعين) أنه عندما غادر يعقوب ضواحي غزة كي يذهب إلى مصر، أرسل يقول ليوسف الذي كان يقيم في ممفيس أن يأتني للقاءه "فأرسل يهوذا أمامه إلى يوسف ليرى الطريق أمامه إلى جاسان ثم جاءوا إلى أرض جاسان"، وقد ترجم النص على هذا النحو في التوراة اللاتينية* "وأرسل يعقوب يهوذا أمامه إلى يوسف لينبئه بمجيئه لكي يأتني هو أمامه في أرض جاسان"؛ فقد كانت أرض جاسان اذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة، وقد منحت للاسرائيليين

* الـ Vulgate هي الترجمة اللاتينية للتوراة، وهي المستعملة في الكنيسة الكاثوليكية، وقام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم، وقد قرر مجمع الثلاثين في العام ١٥٤٦ أن يغد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة. (المترجم)

بالطريقة نفسها التي منحناها بها - أثناء اقامتنا في مصر
- لثلاث قبائل عربية^(٢٩)، جاءت - كما جاء العبرانيون - من
سوريا.

أما وقد عرفنا نقطة البدء، فسوف يكون من السهل علينا أن
نتتبع مسيرة الاسرائيليين؛ كان موسى يريد أن يقودهم إلى
ضواحي جبل سيناء، وكان واثقا أنه سيقابل بالترحاب من عرب
مدين، لأنه عاش طويلا بينهم، وتزوج من (صفورة) ابنة كاهنهم
يثرون، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر،
لكنه خشى ان هو اقترب أكثر مما ينبغى من بلاد الفلسطينيين أن
تنهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر
ويعتزمون العودة اليها^(٣٠)، ولذلك فقد أثر موسى أن يسير بحذاء

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هي ترايين (أو طرابين) الكبرى، عرب طحا (أو
عرب طه) ، والأناجير، وكان هؤلاء في ذلك الوقت في حرب مع باشا غزة
الذى كان قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم.
(٣٠) سفر الخروج، الاصحاح الثالث عشر، الآية ١٧ (وهذا هو نصها :
«وكان لما أطلق فرعون الشعب أن إله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين
مع أنها قريبة، لأن إله قال لنلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا إلى
مصر»).

الساحل الغربى للخليج العربى ، وتجنب بذلك، فى الوقت نفسه، أن يثير، لأكثر من اللازم، وفى وقت مبكر، الريبة فى عزمه على الهروب، لدى فرعون، الذى أعطاه الاذن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الأضحيات. ولهذا فان موسى - كما جاء فى سفر الخروج نفسه - قد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلفة طويلة، وصحبهم، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقرب من البحر الأحمر^(٣١).

لكن الوضع الحالى للخليج العربى سوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون أنفسهم على الفور على شواطئه عند خروجهم من أرض جاسان، ان لم يكن المرء على بينة من ان*الخليج، فى الفترة المتأخرة التى نحن بصدددها، كان يمتد إلى مسافة قريبة من منطقة السبع أبيار: وتأتى طبيعة الأرض بين هذه النقطة وبين مدينة السويس، مع ترسيبات القواقع البحرية، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى، تضاف

* البحر الأحمر. (المترجم).

(٣١) سفر الخروج، الاصحاح الثالث عشر، الآية ١٨ (وهذا نصها . «فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف»).

إليها شهادات القدماء - لتعطى لهذا الرأي، على أقل تقدير، أكبر قدر من الترجيح^(٣٢) وهكذا يمكننا أن نتصور كيف سار الاسرائيليون، في ذلك الوقت ثلاثة أيام بالقرب من البحر الأحمر لكي يصلوا إلى النقطة التي يحدد عندها الأثر طريقهم الذي شقته لهم المعجزة بين الأمواج.

كان محطهم الأول يسمى سكوت، وهي كلمة تعنى الخيمة، ويمكنها أن تدفع إلى الظن بأن هذا الاسم لا ينطبق أبداً على مدينة

(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة رأيي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر. انظر دراستي حول هذا الموضوع، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٨٧ (المجلد الثالث من الترجمة العربية) ولكنني أكتفي هنا بنقل هذه الفكرة عن نيبور Niebuhr ، والتي لم أكن أعرفها في حينها، والتي تتفق مع أفكاري . « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطئ البحر قد تغير هنا كما حدث له في أماكن أخرى، ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية آثار انحسار البحر، فعلى سبيل المثال مخا التي يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناء العربية السعيدة (اليمن) تقع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة، ونرى اليوم بالقرب من ألوحه وجدة تلالا كبيرة تمتلئ بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التي نراها حية في الخليج العربي (البحر الأحمر)، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء. وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ، نحو الغرب من هذه المدينة أكمة من القواقع الحية فوق صخرة لا تغطيها المياه إلا بفعل حركة المد والجزر. وهي عالية لحد لا تبلغها معه مياه هذه الحركة، أذن فمئذ ألف عدة من السنين كان الخليج العربي أكبر اتساعا، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الانخفاض».

قديمة وانما على مجرد معسكر. وزيادة على ذلك، فهناك خرائب
عديدة على حواف الأرض التي هجرها البحر، وهذه أو تلك يمكنها
أن تنتمي إلى سكوت ، وفي اليوم التالي عسكروا في ايتام عند
طرف " البرية" (٢٣).

ويدفعني هذا الموقع لأن أجزم انه بير السويس (٢٤)، الذي يقع
في الحقيقة، وكما يبدو، عند طرف الصحراء اذا كنت قادما من
جهة السبع أبيار، لأن البحر، باتخاذ شكل مرفق يتجه إلى
الغرب، يبدو، عند اتصاله بسلسلة جبل عتاقة العالية، وكأنه يشكل
النهاية الجنوبية للصحراء : فضلا عن ذلك، فان المياه العذبة بالغة
الندرة في كل هذه المنطقة، كما أن الآبار، ولا بد، هي التي تحدد

(٢٣) سفر الخروج، الاصحاح الثالث عشر، الآية ٢٠.
(٢٤) بير السويس تغني البئر الموجودة بمدينة السويس، ويقع هذا المكان
على مسافة نحو القرسخ الى الشمال الغربي من السويس، وهويشتمل على
سورين صغيرين متلاصقين، ومهشمين جزئيا، وينسب بناؤهما إلى السلطان
سليم الأول. ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لمياهها مذاق غير
مستساغ تفوح منها رائحة هيدروجين كبريتي. ولا تستخدمها في العادة الا
الحيوانات، ولكنني شربت منها نون أن أشعر بقرف، وكذلك فعلت السرية التي
صحبتها معي. فقد وصلنا إلى هنا بالغى الظمأ وبعد نهار شديد القیظ
ومسيرة مرهقة على الأقدام، وقضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة نون
ان نشرب. ويلمح المرء خارج السور بقايا مجرى مائي كان يستخدم فيما
مضى في توصيل مياه البئر إلى السويس.

النقاط التي تحط عندها القوافل.

وبعد ذلك تحدث الرب إلى موسى قائلاً : "كلم بنى اسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام قم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون"^(٣٥) ومن السهل أن نتبين سبب هذا الارتداد إلى الخلف، فلعل قم الحيروث أن يكون مكانا حصينا به حامية مصرية. وفي الواقع فإن المرء يرى أن الاسرائيليين لم يدخلوه قط، وانما عسكروا تجاهه على شاطئ البحر، وهناك كان عليهم أن يعبروا، وأمكنت حاجتهم للماء العذب أن تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة في اليوم التالي؛ وبمعنى آخر، فعلى بعد نحو ثلاثة فراسخ من بير السويس، مع الارتداد نحو وادي السبع أبيار، نجد قصرا قديما وحصينا يسمى الها جيروث (العجروث)؛ وفي النص العبري نجد أن المقطع Phi (في) يتفصل بصفة دائمة عن كلمة الحيروث، بل لقد حذف تماما في الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد*. ويعتقد ان كلمة Phi او Pi (في أو بي) كانت هي أداة

(٣٥) سفر الخروج، الاصحاح الرابع عشر، الآية ٢.

* وتقول هذه الآية "ثم ارتحلوا من أمام الحيروث وعبروا وسط البحر إلى البرية .. الخ".

وهنا نلاحظ غياب كلمة قم التي يشير اليها المؤلف بالمقطع في أو بي الوارد في الآية الأولى من الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين. (المترجم).

التعريف فى اللغة المصرية ثم ظلت كذلك فى اللغة القبطية. اذن فقد كان المحط الثالث يسمى هاجيروت ؛ وهذا التشابه مع كلمة هاجيروت (العجروء) لابد فى رأى أن يسترعى الانتباه.

عبور البحر الاحمر

تجاه الهاجيروت، على وجه التقريب، تكونت نحو الجنوب الشرقى، كتلة الرمال التى اقتطعت من البحر الأحمر هذا الحوض الواسع الذى نجده اليوم إلى الشمال من هذا البحر. والذى لاتزال تربته، وهى أدنى بكثير من أدنى حركات المد والجزر، تحمل كل الخواص الدالة على أثر المياه، ومع ذلك فقد كان من الضرورى، قبل أن تكون هذه الكتلة من الرمال قد ارتفعت لحد يكفى لصنع بحيرة من الطرف الشمالى للخليج العربى، أن يتبقى فى هذا المكان مستنقع ظل الحوض فيه مستحيلا، لوقت طويل، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة.

ومن المحتمل أن يكون الاسرائيليون قد اتبعوا موسى عند هذه المخاضة ؛ فهذا الرجل الشهير، الذى تربي على حكمة وعلوم المصريين، والذى لاذ لوقت طويل بشواطئ البحر الاحمر، كان

يعرف امكانية عبورها سيرا على الأقدام من عند هذه النقطة، في حين كان على عبيد يؤساء، غارقين في أحط درجات الجهالة، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل، أن يعتقدوا، عند ظهور الجيش المعادي من جانب، ووجود البحر من الجانب الآخر، أن خط الرجعة قد قطع عليهم^(٣٦)؛ ويورد فلافيوس جوزيف^(٣٧) أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصرى والبحر وصخور وعرة؛ ويتفق هذا الوصف تماما مع الوضع الذى أنسبه للجيش الاسرائيلي، إذ إن سلسلة الجبال التى يلمحها المرء إلى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط.

ولقد كان مع فرعون، فى جيشه، دون ريب، أشخاص كثيرون، لم يكونوا ليجهلووا النقاط التى يمكن اجتياز البحر عندها، ومع ذلك، فاذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين، فقد كان من الطبيعى للغاية أن ينشد الراحة للفرق العسكرية التى أرهقتها مسيرة لابد أنها كانت بالغة التعجل دون أن يخشى، مجرد خشية، أن يتمكن هؤلاء اليؤساء الشاربون ومعهم

(٣٦) كذلك توجد فى البحر الأحمر، تجاه السويس، مخاضة يتردد عليها البدو، وتجهلها غالبية سكان مصر.

(37) Antiquités Judaïques, liv. II Ch, 6.

زوجاتهم وأطفالهم، من الافلات منه؛ أما موسى، فقد أفاد من الضباب أو دوامات الرمال التي يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسميا "غباراً" ليخفى مسيرته عن العدو، كما أمكنه أن يستغل نوبة المد الوطنية لكي يخوض البحر على رأس العبرانيين. وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيراً لحد لايمكنهم من اجتياز البحر في تلك المسافة من الزمن، التي تفصل بين حركة مد وأخرى؛ ومع ذلك فلا بد أن نتوخى الحذر عند وقوفنا على روايات المؤرخين، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل الكبرياء القومي^(٣٨).

وفي هذا الصدد، على سبيل المثال، فإن مانعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التي تسكنها، يحملنا على الاعتقاد بأن بعض اليهود، من أولئك المتحمسين للغاية لمجد أمتهم، سوف يستبيحون لأنفسهم - في الأصحاح الأول من سفر العدد - واحدة من هذه التحريفات التي يعترف الكرادلة والمجامع المقدسة بإمكانية

(٣٨) فلنستبدل، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم في معركة واحدة ٣١ ملكاً (انظر سفر يشوع).

وجودها في الأسفار الخمسة^(٣٩)؛ وتكفي ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك، ان لم يكن بخصوص الوقائع الأساسية، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل، لاسيما عندما يتعلق الأمر - كما هو الحال هنا - بدقة العدد؛ فمن المعروف في واقع الأمر أن كتاب الشريعة قد نشر لأول مرة في أرض مواب في عبر الأردن، في أرض مواب ابتداء موسى يشرح هذه الشريعة^(٤٠)، أي بعد أربعين عاما من خروج العبرانيين من أرض مصر^(٤١)، ولم يكن قد ظل

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسعون لاجراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالكتب المقدسة، كان رجال الكنيسة، من حائزي ثقة البابا والمقربين إليه يقولون بصوت عال. ان هذه النصوص تستمد قداسيتها من تبني الكنيسة لها؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خاملي الذكر، بل ان قاصدا رسوليا في مجمع الثلاثين، هو الكاردينال وارمي Warmie لم يخش من مغبة أن يعلن في مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسي لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبعا لنص كلماته . ذلك أنه من المؤكد أن مؤلفنا (الكتب المقدسة) هذا كان سيغدو عملا ضئيل الأهمية، لولا أن سلطة الكنيسة قد علمتنا أن هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة، وفي النهاية، فإن أكثر آباء الكنيسة علما من أمثال أوريجين وسان أوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفي للتوراة على إطلاقه، ويرون فيما ورد فيها رموزا واستعارات.

(٤٠) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآية ٥ ، والاصحاح ٢٩ الآية الأولى، الاصحاح ٣١، الأيتان ٩، ٢٤.

(٤١) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآية ٣.

على قيد الحياة، عندئذ، فى كل اسرائيل، ممن شهدوا الوقائع التى وردت بالأسفار (الخمسة) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفتة^(٤٢) ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى^(٤٣) الذى باركهما وجعل منهما وارثى سلطته. لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون أن يتبصروا الخير والشر، حين كان أبائهم يعسكرون فى صحراء فاران، كانوا - وحدهم - الذين نالوا من الرب الاذن بدخول الأرض الموعودة^(٤٤) ، فهل كان بمقدور هؤلاء، وقد أصبحوا رجالا، أن يعرفوا حقيقة أعداد قبائلهم عندما غادرت مصر، وأن ينحو جانبا شهادة رجل كان هو نبيهم، وفى الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق المرهوب (؟) أولسنا نعرف بأية سهولة يتبنى الرجل المتمدين، كما يفعل الرجل المتوحش، أكثر المبالغات بعدا عن العقل إذا كان الأمر يتعلق بقوة أمتة وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ وأخيرا، فإن شريعة موسى فى أورشليم كما فى السامرة قد هجرت فى غالبية الأوقات من أجل عبادة آلهة مزيفة، ولقد ضاعت الكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جديد،

(٤٢) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨.

(٤٣) سفر العدد، الاصحاح ١٤ ، الآية ٦.

(٤٤) سفر التثنية، الاصحاح الأول، الآية ٣٩.

واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودي عهده مع الرب. لذلك فلا ينبغي أن يخالجنّا الشك في أن بعض تغييرات طفيفة قد حدثت للأسفار، وأن بعض الأخطاء في الأرقام على وجه الخصوص تتسرب إليها حين يكون للكبرياء القومى بعض المنفعة من وراء الترويح لها^(٤٥).

وبمجرد أن علم الفرعون ان العبرانيين قد إجتازوا البحر، أخذ في ملاحقتهم، واقتفت قواته، مدفوعة بالحماسة التي توجبها

(٤٥) حين تعبر الأعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن أن تقترب أكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم، وخصوصا إذا كان لهذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها في الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف. ويضاف إلى أخطاء النساخ هذه خطأ من نوع آخر؛ وإذا شئنا علي سبيل المثال أن نبين الى أى حد يمكن أن يؤدي سهو مترجم ما، أو سعيه وراء كل ما هو عجيب أو غير مألوف، إلى تحريف مؤلف ما، فلنفتح التوراة اللاتينية، سفر الخروج، الاصحاح الثانى والثلاثين، وسنجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبى قد أمر بقتل ٢٣ (ثلاثة وعشرين) ألفا من الاسرائيليين، في حين نجد الأمر في النص العبرى، وفي الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل، وهو تقدير كبير مع ذلك، وهناك خطأ آخر أكبر، وهو الذى اقترفه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين ألفا وسبعين) عدد سكان بيشان المضروبين بالموت عند عودة التابوت، في حين كان عليه أن يقول إن من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون، وقد نقلت هذه الأرقام (ثلاثة وعشرين ألفا، وخمسين ألفا وسبعين) إلى ترجمات أخرى نقلت عن التوراة اللاتينية، ولعلها قد تذكر ذات يوم، دليلا على دقة الاعداد، وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره، شكل الحقيقة.

خطواتهم دون أن تلقى بالآلة البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المقابل. فأنقذ المد بعضا منهم ، وابتلع آخرين. وعلينا أن نضع فى الاعتبار تلك الرياح القوية التى كانت تهب فى ذلك الوقت^(٤٦) ، وبذلك لن تعترينا الدهشة البتة لأن جزءا من المصريين قد ابتلعته الأمواج^(٤٧).

يبلغ المد عند السويس نحو المترين، وفى أوقات العواصف، حين تهب بشدة رياح الجنوب ترتفع لدى يبلغ فى بعض الأحيان ستة وعشرين ديسيمترا؛ وهذا أكثر من كاف لكى يغرق المد جيشا كبيرا؛ فإذا كان جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه، وهو ما يوضحه فيما يبدو صمت المؤرخين الدنيويين، فيمكن افتراض أن

(٤٦) سفر الخروج، الاصحاح ١٤، الآية ٢١.

(٤٧) فى العام السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية، شاهدنا الجنرال بوناپرت، وهو عائد من عيون موسى، يريد أن يعبر البحر عند المخاضة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط الكنتورية لقمة الخليج، وهو الأمر الذى يختصر طريقه لمسافة تزيد على الفرسخين؛ حدث هذا فى أول الليل، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة نوبات المد لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكنا، وتعرض الجنرال ومن معه لأشد الأخطار، فى وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد.

هذا الجيش، وقد أفزعه حجم الخسائر التي لحقت به ، ولأنه قد بدأ يخشى في ذات الوقت أن يكشف نفسه في صحراء لايعرفها بالقدر الكافى، لم يحاول قط أن يخوض البحر الأحمر عند نوبة المد المنخفض (الجزر) التالية.

وهكذا أمكن الاسرائيليين أن يترنموا بهذا النشيد :

- ١- "أرثم للرب فقد تعظم، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر؛
- ٢- "الرب قوتى ونشيدى ، وقد صار خلاصى، هذا الهى فأمجده، اله أبى فأرفعه ؛
- ٣- "الرب رجل الحرب، الرب اسمه ؛
- ٤- " مركبات فرعون وجيشه ألقاهما فى البحر، فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف ؛
- ٥- " تغطيهم اللجج، قد هبطوا فى الأعماق كحجر ؛
- ٦- " يمينك يارب معتزة بالقدرة، يمينك يا رب تحطم العدو ؛
- ٧- " وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛

٨- " وبيع أنفك تراكمت المياه ، انتصبت المجارى كرابية ،
تجمدت اللجج فى قلب البحر ؛

٩- " قال العدو اتبع ادرك أقسم غنيمة، تمتلئ منهم نفسى،
أجرد سيفى، تقنيهم يدى ؛

١٠- " أنفخت بريحك فغطاهم البحر، غاصوا كالرصاص
فى مياه غامرة ؛

١١- " من مثلك بين الآلهة يارب، من مثلك معتزا فى القداسة،
مخوفا بالتسابيح، صانعا عجائب ؛

١٢- " تمد يمينك ؛ فتبتلعهم الأرض ؛

١٣- ترشد برأفتك الشعب الذى فديته. تهديه بقوتك إلى
مسكن قدسك ؛

١٤- "يسمع الشعوب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة سكان
فلسطين ؛

١٥- " حينئذ يندهش أمراء أدوم، أقوياء موآب تأخذهم
الرجفة، يذوب جميع سكان كنعان ؛

١٦- " تقع عليهم الهيبة والرعب، بعظمة ذراعتك يصمتون
كالحجر ، حتى يعبر شعبك يارب ، حتى يعبر الشعب
الذى اقتنيتته ؛

١٧- " تجيء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك ، المكان الذى
صنعتة يارب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يارب ؛
١٨- الرب يملك إلى الدهر والأبد.

١٩- " فان خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر،
ورد الرب عليهم ماء البحر، أما بنو إسرائيل فمشوا على
اليابسة فى وسط البحر" (٤٨).

هكذا كانوا يشكرون السماء على خلاصهم، كانت مريم النبية
(أخت هارون) ، وكانت نساء إسرائيل، وقد انقسمن إلى جوقات،
يكررن على صوت دفوفهن :

"رثموا للرب فانه قد تعظم، الفرس وراكبه طرحهما فى
البحر".

(٤٨) سفر الخروج، الاصحاح ١٥، الآيات من ١ إلى ١٩.

فلو شاعت بعض العقول المدققة أن تتبين معنى هذا التعبير الذى جاء فى التوراة : "فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم"^(٤٩) لجاءها الرد بأن الأمر لا يعدو أن يكون أسلوباً مجازياً للتعبير عن أنهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة، ولما لم يكن ينبغى لهم أن يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين. هكذا . ان ترانيم شاعر ما لا يصح أن تفسر بقدر أكبر من الصرامة، كما أن الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتي أوردناها من قبل، تبين لنا كيف أن المصريين قد سقطوا فى قاع البحر، وليست المياه هى التي عاودت سقوطها فوقهم (أو انطباقها عليهم)^(٥٠).

(٤٩) سفر الخروج، الاصحاح ١٤، الآية ٢٢.

(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الأقدمين بمعناها الحرفي أن يختلط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيدة عن كل عقل، ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ما هو خطأ تفكيرنا؛ فعبارات مثل أمفيون الذى بنى طيبة على أنغام قيثارته، وأريحا التى انهدمت على صوت قرع دفوف بنى اسرائيل، انما هى عبارات من السهل أن نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ما هو سهل أن نشرح هذا البيت من الشعر للشاعر الفرنسى بوالو Boileau كوندية، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه، لاسقاط الحصون.

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحر الأحمر، فنجد على شاطئه الشرقى - على بعد ثمانية عشر ألف متر إلى الجنوب من النقطة التى افترض أن الاسرائيليين قد عبروها - عيون مياه تسمى حتى اليوم عيون موسى.

ويعتقد بوكوك Pococke أن العبرانيين قد خاضوا البحر تجاه هذه العيون، ولا يعطى سنداً لقولته هذه إلا أن هناك أثراً عن ذلك لا يزال موجوداً لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا أن نصدق فى هذا الصدد ما يقول سكان الصحراء ؛ لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسألهم عنه.

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه إلى الجنوب بدرجة أبعد، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه، وهناك من المؤلفين من يعتقدون أن بحراً واسعاً وعميقاً هو الذى تتجلى فيه أكثر من غيره قدرة الاله.

وفى مقابل ذلك، فهناك آخرون يظنون أن بنى اسرائيل لم يعبروا البحر من شاطئه لآخر، وإنما هم - بعد أن دخلوا سريره (مجره) فى حالة المد المنخفض، انسحبوا نحو الأرض مع بدء

ارتفاع نوبة المد، مواصلين مسيرتهم فوق منحنى بيضاوى الشكل،
من جهة المياه ؛ وهذا رأى لا ينهض على أساس، وانما يبرهن فقط
كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل محض خياله، وفى جهل
تام بالمواقع.

وهناك آخرون كثيرون كانوا أكثر توفيقا فى شرحهم عبور
البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب^(٥١)
Eusebe * عن شخص يدعى ارتابانوس Artapanus قد
أورد هذا الرأى ناسبا اياه لكهان ممفيس ؛ وعندما خشى المؤرخ
يوسيفوس أن تبدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن
التصديق لدرجة كبيرة ، فقد قرر أن الشئ نفسه قد حدث
للمقدونيين عندما عبروا بحر بامفيلى Pamphylie ** تحت
قيادة الاسكندر، وأضاف "ومع ذلك فاننى أترك لكل امرئ أن
يحكم على الأمر كما يشاء". وهذا الاعتراف من جانب أحد

(51) Proepar, evang. lib IV, Cap. 17.

* أما أوزيب فهو مطران قيسارية، وله مؤلف ضخيم عن التاريخ الكنسى،
(٢٦٥ إلى ٣٤٠م). (المترجم).

** إحدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة أضاليا، وهو
هنا يشير إلى خليج يحمل نفس الاسم. (المترجم).

الأخبار وواحد من أكثر أعضاء الاكليروس اليهودى علما ، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رأى هذه الهيئة الدينية؛ ولذلك فان لوما شديدا قد وجه إلى يوسيفوس بسبب صراحته هذه، من جانب اناس ظنوا، برغم كونهم مسيحيين، أن عليهم أن يبدووا أكثر منه فى يهوديته، وهو ما يستحيل على المرء أن يأخذ به عند قراءته لهذا المؤرخ ، ومن بين المحدثين، نجد نيبور ولوكيرك Le Clerc يحددان السويس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع أمام هذه المدينة، ولم يك بمقدور هذين الرجلين أن يعتقدوا، مثلى، أن العبور قد تم لأبعد من ذلك، قليلا، نحو الشمال، وعند نقطة لا يشغلها البحر اليوم، لأن الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد أية عمليات تفدين فى هذا الجزء من البرزخ ؛ وفوق ذلك فهذان الرأيان لا يختلفان فيما بينهما إلا بقدر طفيف للغاية حتى يمكن للمرء أن يتبنى، دون تفرقة، هذا رأى أو ذلك، فلقد كان موقع حصن هاجيروت أو الحيروث الذى ضرب أمامه الاسرائيليون خيامهم، بالاضافة إلى أن البحر فى الفترة المتأخرة كان فى الأرجح أكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم - كان هذا

كله هو الذى قد حسم اختيارى^(٥٢).

وهكذا رأينا، ما هو، فى نظرى، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر، فأما أولئك الذين يضعون الحدث فى صف الخرافات فسوف يتفقون معنا، على أقل تقدير، على احتمال حدوث الأمر على هذا النحو، وأما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم، دون ريب، إن لم يجدوا من الضرورى أن ينقلب نظام الكون كى نتعرف على قدرة الله فى تخليص العبرانيين، وفى إلحاق الخسارة بالمصريين.

المياه المرة تصبح مياه عذبة

" ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى برية شور، فساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء، فجاؤا إلى مارة، ولم يقدرُوا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر، لذلك دعى

(٥٢) لا بد أن البحر قد كان فى ذلك الوقت، أمام السويس، أكثر عمقا مما هو عليه الآن، مادامت كتلة الرمال التى تحول دون امتداده نحو الشمال بحوالى خمسين ألف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذى يكفى لابقائه داخل حدوده الحالية. انظر دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٨٧. (المجلد الثالث من الترجمة العربية).

اسمها مارة، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب، فصرخ
إلى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء
عذبا^(٥٣).

لو أن موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر أثناء هروبه
الأول إلى الصحراء لظل هذا السر محفوظا لديه (أو معروفا منه)،
ولو وجدناه عند البدو الذين لهم بلا جدال مصلحة كبيرة في جعل
الماء صالحا في صحراء تنقصها المياه الصالحة بدرجة كبيرة؛
اذن فعلينا في هذا الصدد أن ننقل ما قاله المؤرخ يوسف* وإليك
نص ما قاله حول هذه القضية^(٥٤). وبعد أن مشى الاسرائيليون
طويلا، وصلوا عند حلول المساء إلى مكان يسمى مارا، وسمى
كذلك بسبب مرارة مياهه، وحيث كانوا منهكين للغاية فقد وقع
اختيارهم على التوقف هناك في الوقت الذي كانت تنقصهم فيه
المؤن، ذلك لأنهم وجدوا هناك شرا جعلتهم يأملون، برغم أنها لم
تكن لتستطيع أن تفي بحاجة مثل هذه الألوف العديدة، في بعض

(٥٣) سفر الخروج، الأصحاح ١٥، الآيات ٢٢ إلى ٢٥.

(54) Antiquités Judaïques, liv. III, Chap. 1

* يوسف أو جوزيف أو يوسفوس، وهي طرق ثلاث لكتابة اسم واحد يشير
إلى الشخص نفسه. (المترجم)

الانفراج فى احتياجاتهم، كما أن هذه البئر قد واستهم، لاسيما وقد قيل لهم أنه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مرة حتى أنه لا البشر ولا الخيول ولا الحيوانات الأخرى أمكنها أن تشرب منها. يالها من مفارقة تدعو للأسى، قد جعلت الشعب كله فى حالة من اليأس ووضعت موسى أمام صعوبة أليمة وعجيبة، فالأعداء الذين عليه أن يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن دفعهم بفعل بذل سخرى ؛ انهم الجوع والعطش اللذان قد جعلوا ، وحدهما، هذه الألوف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشرفون على الهلاك ؛ وفى الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر هو آلام الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصة إذ كان الجميع يلتجئون إليه، فالأمهات يستعطفنه أن يكون شفوفا بأطفالهن، والأزواج يلتمسون منه أن يحنوا على زوجاتهم ، وكل امرئ يتضرع إليه كى يبحث عن بعض علاج لهذا الألم العظيم. وبينما هو فى مثل هذه الحاجة الماسة اتجه إلى الله يطلب عفوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه المياه المرة إلى مياه حلوة، فأنبأه الله أنه قد منحه هذا الفضل، عندئذ أخذ موسى قطعة من الخشب، وشقها إلى اثنتين،

وبعد أن ألقى بها فى البئر قال للشعب ؛ إن الرب قد استجاب لدعواته، وأنه سينزع عن هذه المياه كل ما فيها من مرارة أو طعم غير مستساغ ، شريطة أن ينقنوا ما يأمرهم به. ثم طلب اليهم ما ينبغى أن يعملوه ، فأمر أشدهم قوة وأمتتهم بنية بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم أن الماء الذى سيتبقى سيكون صالحا للشرب. فأطاعوه ، فجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى أعطاه لهم" - عن ترجمة المسير أرتو داندلي Arnaud d`Andilly.

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف أنه بافراغ إحدى الآبار، تصبح المياه التى تبقى عادة أفضل بكثير؛ وتتطابق هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة، وفضلا عن ذلك فقد واثقنا الفرصة أن نكررها مرات عدة فى مصر؛ ففى المناطق الصحراوية التى أقمنا فيها بعض التحصينات ، أصبحت المياه المائلة للملوحة، والنتنة فى معظم الأحيان، أفضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها.

عن السحاب وعمود النار وعن بعض الظواهر الأخرى المثيرة للانتباه

هناك معجزة أخرى أخذت تتبدى للعبيرانيين منذ خروجهم من مصر، وظلوا يحظون برؤيتها بعد عبورهم البحر الأحمر؛ لقد بدا الرب لهم نهارا في صورة سحاب وليلا في شكل عمود نار؛ وعلى هذا النحو سار في مقدمتهم ليرشدتهم إلى طريقهم .. ثم يجلس فوق مظلة حين يعسكرون. أليس ثمة احتمال في وجود بعض أخطاء، أو سوء فهم، من جانب الشراح المتبحرين في التوراة ؟ وهل يمكن أن يستدعي موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبرانيين، ليقدمها كمعجزة ؟ الأمر المؤكد هنا هو أن القوافل تستخدم في بعض الأحيان، أثناء سيرها الليلي، شعلات ضخمة يحملها الأدلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع، نص ننقله عن العدد ٢٤ من بريد مصر Courier de l Égypte وهي الصحيفة التي كانت تطبع في القاهرة (أثناء الحملة الفرنسية) :

في العاشر من نيفوز، رحلنا من السويس، واتجه الجزء الأكبر من القافلة نحو العجود، ومضى القائد العام وفي صحبته

الجنرالات برتييه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتواليه Berthollet - إلى الطرف الشمالى الأقصى للخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك التربة التى ترسمها الخرائط باعتبارها كانت تقيم اتصالا بين النيل والبحر الأحمر، وفى الواقع، فقد تم العثور على مثل هذه الآثار، وكان أول من تبينها هو الجنرال بونابرت نفسه. ثم سارت الفرقة لمسافة أربعة فراسخ فى مجرى التربة نفسها؛ وفى الوقت نفسه، فمع السير فى هذا الاتجاه، ابتعدت هذه الفرقة كثيرا عن العجروء، حيث كان عليها أن تعود لتلحق ببقية القافلة حيث الماء والمؤن والأطعمة. كان الليل يقترب، وكان موقع العجروء بالنسبة لها غير معروف؛ وتعرض من فى الفرقة لخطر أن يضلوا الطريق.

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرتويه رجلا فوق حصانه، وسارا فى المقدمة، واتجها بأقصى سرعتيهما نحو النقطة التى كانت تغيب عندها الشمس، وساقهم هذا الاتجاه لحسن الحظ إلى العجروء، وأمر القائد العام باطلاق قذيفة مدفع، وباشعال النار فوق أبراج القصر، وبأن توضع فوق بعض النقاط العالية من

الطريق الذى انتهى هو من اجتيازه مشاعل (أو فوانيس) من تلك التى تتزود بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق أثناء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة، فالشعلة منها اسطوانية الشكل، توضع بها نار قوية ولامعة، اذ توقد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط، وهذه المشاعل مثبتة فى الجزء العلوى منها بعصا يصل طولها خمسة إلى ستة أقدام، وتغرس فى الأرض حين يراد التوقف ؛ فاذا شاعت القافلة أن تسير خلال الليل، يمشى فى مقدمتها رجال عديدون يحملون شعلات مماثلة، ويحرصون على بقائها عالية ليلمح كل مسافر ناراها.

وعند المساء ، التأم شمل الجميع^(٥٥).

سيقال ، بلا جدال ، أن ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التى تكون السحاب وعمود النار اللذين تشير إليهما التوراة، ذلك أننا نقرأ فى التوراة، فى الآية ٢١ من الاصحاح الثالث عشر من سفر الخروج أن الرب كان يسير أمام العبرانيين. ومع ذلك فهل

(55) Cowrier de l'Egypte, No. 24, le 27 nivòse an 7. de la Republique Française.

يتحتم علينا أن نأخذ هذا التعبير بمعناه الحرفى فى حين يعرف المرء أن شعبا شديد التقدين يجعل كل شىء من صنع الرب، وأن الاسرائيليين، بشكل خاص كانوا يتقبلون فى الشعر، وفى النثر ذاته، كل المبالغات التى تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن، حيث تضع اللغة الكثير من التحفظ والتعقل أو القيود، ألسنا نجد اناسا يتسمون ملائكة أو كائنات مقدسة أو مخلوقات سماوية ؟ لنضع أنفسنا لحظة فى مكان العبرانيين ؛ أجنبى يسير على رأسنا ليهدينا السبيل فى صحراء مجهولة منا، الشعلة التى يحملها فى الهواء تلقى خلال النهار دخانا، وخلال الليل لهيبا يهتدى على ضوءه رجالنا. الأمر المؤكد أن لن يكون ثمة ما هو أبسط ولا أيسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشاعرية. ومع ذلك فعلينا ألا نواجه الأمر فى ذاته، ولنتدبر نتائج، وعندئذ سوف نغير من لغتنا، ولسوف نقول: كيف هبط علينا هذا الرجل فى الوقت نفسه الذى نحتاج اليه فيه أشد الاحتياج ؟ كم نحن محظوظون أن وهبنا إياه ! أنه رجل مبارك ، أنه ملاك ، أنه إله !

وحيث يتعاضم كل شىء، بالنسبة نفسها فى لغة الحماسة، تتحول الشعلة إلى عمود من النار، إلى عمود من السحاب، إلى

مجد الرب (٥٦).

ومما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها أمرا خارقا للطبيعة أنه يخبرنا بأن حماه، هذا العربي من مديان (مدين)* هو الذى قاد الاسرائيليين ، واليكم ما نقرؤه حول هذا الموضوع فى سفر العدد، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : "وقال موسى لحوياب بن رعوثيل المديانى، حمى موسى ، اننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم اياه، اذهب معنا فتحن نحسن اليك، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : " فقال له لا اذهب، بل إلى أرضى وإلى عشيرتى أمضى ؛

آية ٣١ : " فقال لا تتركنا لأنه بما انك تعرف منازلنا فى البرية تكون لنا كعيون ؛

آية ٣٢ : " وان ذهبت معنا فبنفس الاحسان الذى يحسن

(٥٦) أطلق القديس يوحنا على مطارنة الكنائس الاسيوية السبعة اسم ملائكة هذه الكنائس . «وقال ابن الرب اكتب إلى ملاك كنيسة ايفيزوس». * وهى احدى المدن الايونية على بحر ايجة. (المترجم).

الرب إلينا نحسن نحن اليك ؛

آية ٣٣ : " فارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة أيام وتابوت عهد الرب راحل أمامهم مسيرة ثلاثة أيام ليلتمس لهم منزلاً".

وبالتأكيد ، فلو أن ملاك الرب كان حقيقة هو الذي يمشى أمام العبرانيين لكان موسى فى غير حاجة إلى حميه ليكون مرشدا لهم ولما كان وعده بالكثير من "الاحسان" - أى الثروات - ليحمله على البقاء بالقرب منه.

أما هذه العبارات : **ان الرب أو ملائكته كانوا يتودون جيش إسرائيل فى شكل دخان أو لهيب** فيقتصر معناها على أن تابوت العهد كان محمولا فى مقدمة المسيرة^(٥٧).

(٥٧) التابوت عبارة عن صندوق من خشب السنط تكسوه صفائح من ذهب، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الذراع، وعرضه ذراعا واحدا ونصف الذراع وبارتفاع يماثل عرضه، وقد حفظت فيه ألواح الشريعة، ويسمى غطاء التابوت **المائدة**، ويعلوه اكليل من الذهب، يشكل جناحاه المبسوطتان ما يشبه مقعدين يفترض أن تجلس عليهما ذات الرب غير المرئية، سفر العدد، الاصحاح السابع، الآية ٨٩. وكان جانبا التابوت. من ناحية الطول، مزودين بحلقتين كانت تدخل فيهما العصوان اللتان تستخدمان فى حمله فوق الأكتاف، ويمكننا أن نرى فى أطلس العصور القديمة، اللوحة الثانية، المجلد الأول، الشكل ٤، رسما بارزا فى جزيرة فيلة يماثل التابوت لدرجة كبيرة، وهو ما سبق أن لاحظته من قبل المسيو لانكريه Lancrét فى دراسته عن وصف جزيرة فيلة، ص ٢٧.

أما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق أو الجيوش، عن طريق اشارات نارية توضع أثناء نوبات الراحة فوق خيمة القائد، فأمر لا يخص العبرانيين وحدهم، فمن المعروف أنها كانت مستعملة عند الفرس، كما أننا سوف نقرأ هنا باهتمام النص التالى عند كينت - كورس Quinte-Curce* بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالاصحاحين التاسع والعاشر من سفر العدد. يقول كينت كورس عند حديثه عن الاسكندر: "وعندما كان يريد أن يفض معسكرا، كانت الطبول تعطى الاشارة، ومع ذلك، فحيث كانت الضجة فى معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول، فقد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمته عصا يستطيع أن يلمحها الجميع وأن ترفع فوقها شارة الرحيل : وكانت هذه نارا أثناء الليل ودخانا أثناء النهار⁽⁵⁸⁾ .

ونقرأ فى الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥ : " وفى يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن

* مؤرخ لاتينى عاش فى القرن الميلادى الأول وله مؤلف كبير عن تاريخ الاسكندر. (المترجم).

(58) De Rebus Gestis Alex. Lib, V. Cap. 7.

خيمة الشهادة ، وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار إلى الصباح ؛

آية ١٦ : " هكذا كان دائما، السحابة تغطيه ، ومنظر النار ليلا ؛

آية ١٧ : " ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو اسرائيل ينزلون " .

وفى الاصحاح العاشر :

آية ١ : " وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : " اصنع لك بوقين من فضة، مسحولين عملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : " فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع " .

ولا يمكن المرء بالتاكيد أن يجد تشابها أكبر بين عادات الأمتين فيما يتصل بمسيرة فرقهما .

معجزات أخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعي مماثل لما تم مع المعجزات السابقة. كذلك فإن السمان، الذي يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الكثير منه في الأيدي عند شاطئ البحر، في الفصول نفسها التي كان العبرانيون يستخدمونه خلالها طعاما لهم، ونقرأ عند ديودور الصقلي أن مصريين منفيين لادانتهم بالسرقة في عهد اكتيزانيس، في صحراء برزخ السويس، كانوا يتغنون بالطريقة نفسها، أما المن، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت في الماضي وفيرة العدد في المناطق المحيطة بجبل سيناء ، أما النار اليونانية، فهي مثال على أن الشرقيين قد عرفوا، في فترات سابقة ، كيف يشعلون النار، وكيف يستخدمونها على هذا النحو المخيف.

ومع ذلك فإن كل هذه التفسيرات لا تتعارض في شيء مع الرأي القائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قد جاء لمساعدة شعبه؛ فهذا الاتفاق العارض أو الفجائي لأحداث مواتية، والتي ليس بمقدور أحد أن يكررها، يمكن أن ينظر إليه باعتباره (في حد ذاته) معجزة، وفضلا عن ذلك فلا ينبغي أن نتوقف عند هذا الأمر أكثر من ذلك، ولنصل مباشرة إلى تلك اللحظة التي أقام فيها

الاسرائيليون ، دون جلبة ، فى الصحراء ، بعد أن هزموا العماليق
فى راقيديم.

الشرية تتنزل على جبل سيناء (٥٩)

كانت كل الشعوب القاطنة فى ضواحي جبل سيناء على يقين
من أن الرب يقيم هناك ؛ ذلك أنه يكاد ينظر إلى الجبال العالية فى
كل مكان، باعتبارها المقر الاعتيادى للآلهة ؛ وهذا أمر طبيعى،
فليس هناك واحد منا لم يستشعر عند سفح هذه الكتل الصخرية
العظيمة ضعفه، وهو أمر ينتج عنه خشوع وتأمل يهيئان لانبعاث
روح الأفكار الدينية، وفضلا عن ذلك فإن الجبال تكون مسرحا
لعدد كبير من الظواهر المفزعة، التى تبدو كما لو كانت جهازا
هائلا فى أيدى آلهة جبارة ؛ ولقد منح الخوف، بأكثر مما فعلته
المعرفة، البشر أولى أفكارهم عن الألوهية ، فمن قممها تندفع
السيول المدمرة، كما تتكون فى باطنها وعلى ضجيج الانفجارات
التي تزلزل وتقلب باطن الأرض، الأحجار الملتهبة ، والمعادن

(٥٩) يسمى العرب هذا الجبل باسم جبل موسى.

المنصهرة التي تبتلع المدن وتدمرها حين تخرج في شكل شواظي
من نار وأنهار من حمم ؛ كذلك، على ذراها، تزمجر الرياح
العاتيات، وتتراكم السحب التي تتخذ من الأشكال ما يبعث على
الرغبة، وتتفجر الرعود الهائلة وسط البروق التي تبدو وكأنها
ستصعق الوديان^(٦٠).

على مشهد عاصفة مماثلة، أراد موسى أن يصدم خيال
الاسرائيليين حتى ينتهى باقناعهم بصحة تلك العلاقة القائمة بينه
وبين الرب، لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل، شيئاً شبيهاً
بذلك، فهي تتوهج بالضوء الباهر أثناء النهار، وبأجمل لون
لازوردى أثناء الليالى الهادئة، ولا تحجبها قط أية سحب معتمة ؛

(٦٠) عندما قرأت في المجمع العلمى بالقاهرة، فى السادس عشر من
برومير من العام التاسع، مذكرتى هذه عن عبور الاسرائيليين للبحر الأحمر،
وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء، أعلنت أن هذا الجبل يمكن أن يكون
بركانا خامداً، فالأحجار البركانية الضخام التي كنت رأيتها فى صابورات
السفن (الصابورة . ثقل يوضع فى سفينة لحفظ توازنها) عند مدينة الطور
تلك التي كانت تصل إلى السويس والقصير؛ كما أن الوصف الذى يعطيه
موسى للحظة تجلى الرب فوق جبل سيناء قد رجحت عندى الرأى، وبعد
وقت من قراءة دراستى توجه اثنان من رفاق رحلتنا هما السيدان كوتل
Coutelle وروزيير Rozière إلى كهف فى جبل سيناء، وتبين لهما أن
الجبل جرانيتى وليس به أى أثر لبركان، ومع ذلك فإن الأعاصير أو
العواصف، تتفق بنفس القدر مع ما يمكن أن تحدثه ثورة بركانية كذلك التي
جاءت فى رواية موسى.

وفى الربيع فقط نرى بعضاً من سحب بالغة الارتفاع تدفعها
بسرعة ريح الشمال، لتمضى سريعاً كي تتراكم فوق جبال الحبشة
العالية، حيث تتحول إلى أمطار ينشأ بسقوطها عدد لا حصر له
من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر. أما
الخماسين أو الريح المسمة (ريح السموم)، بدواماتها الترايبية
الملتبهة وأعمدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو، ومع ذلك،
وبخلاف أنها لا تهب على مصر إلا مرة أو مرتين على مدار العام
فإنها هناك ضارة أو مؤذية أكثر منها مفزعة، فهي تمارس على
الحيوانات والنباتات آثارها الضارة، وتسبب أمراضها، بل قد
تقتلها أحياناً، فإن ذلك يحدث* فى معظم الأحيان بالطريقة التى
تحدث بها آثار السموم، تلك التى تعمل دون جلبة، دون عنف
ظاهرى؛ وبالإضافة إلى ذلك، فبإمكاننا، أن نحكم عليها بدواماتها
تلك بأنها بنت الأرض أكثر منها وليدة للسماء، لذلك فنحن نعتقد أن
قدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقوة السيئة، وعلى هذا
يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذين
بفعل رعب دينى عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات
السحب، ويسمعون فيها هزيم الصواعق فوق الجبال العالية،

تتزايد أصداءه وتمتد لأبعد مدى قعقاته^(٦١). وفى الواقع فإن السحب تقدم لمن يرصدها أشكال شياطين بالغة الغرابة، كما ان حركتها، وأشكال المسخ التى تقدمها قد أفرغت فى معظم الأحيان وألهبت خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها آلهتهم ذاتها أو أرواح أجدادهم الهائمة ، أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد الكون، وها نحن نرى، برغم تقدم العلوم والفنون الذى يهيئه التعلم، أن كثيراً من الناس ما برحوا يخافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة أو الداهمة، والسبب فى ذلك بالغ البساطة. ان من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الاخطار فى الوقت الذى لانملك فيه وسيلة ما لدرء أخطار الرعد، وزيادة على ذلك، فكل ضجة هائلة تولد الاحساس بوجود قوة عظيمة، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر عن كائن عظيم وقادر فى حالة غضب وهياج.

لقد ظل موسى لوقت طويل يرعى قطعان حميه فوق جبل سيناء، وهناك كان شاهداً على ظواهر وأشكال سامية شكلتها

(٦١) أثناء قرابة نحو أربع سنوات قضيتها فى مصر، لم أسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد؛ ومع ذلك فقد كان هذا الصوت ضعيفاً حتى أن كثيراً من الأشخاص، ممن كانوا معى، لم يلحظوه قط.

الرعود والعواصف فوق هذا الجبل الشامخ : وبلا ريب فان ذكرى ما كان هذا الرجل الماهر قد استشعره منها هي التي دفعته إلى استغلالها في تحقيق مآربه.

وننقل هنا نصا حرفيا من جزء من الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١ ، ٢ " في الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من أرض مصر، في ذلك اليوم جاعوا إلى برية سيناء ؛ ارتحلوا من رفيديم وجاعوا إلى برية سيناء فنزلوا في البرية. هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

آية ٣ : " وأما موسى فصعد إلى الله، فناداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبيت يعقوب، وتخبر بنى اسرائيل ؛

آية ٧ : " فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التي أوصاه بها الرب ؛

الآيات من ٨ إلى ١٢ : " فأجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل، فرد موسى كلام الشعب إلى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها أنا آت اليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد، وأخبر موسى الرب

بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب إلى الشعب وقدمهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم، ويكونوا مستعدين لليوم الثالث. لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء؛ وتقيم للشعب حدوداً من كل ناحية قائلاً احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسوا طرفه. كل من يمس الجبل يقتل قتلاً".

وفى واقع الأمر، فليس من العسير أن يتنبأ بحدوث الرعد قبل مواعده ببضع ساعات^(٦٢)؛ فالبحارة وسكان الجبال العالية يبرهنون لنا كل يوم على صحة ذلك، إذ تحملهم غريزة البقاء على أن يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التي يخشونها. وقد تطلب الأمر من موسى - وقد عمل لمدة طويلة راعياً فوق جبل سيناء - أن يقوم هناك بتأملات وملاحظات مماثلة. أما عن الفترة

(٦٢) تتضح نذر الثورات البركانية كذلك، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة، عن طريق توهج المستنقعات والأبخرة التي تحمل روائح كبريتية، وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحر، والأصوات تحت الأرضية وجفاف الآبار، ونقص - وفى بعض الأحيان التوقف التام - للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة، وكذلك عن طريق الفرع الذى يملك الحيوانات فتعبر عن قلقها بصرخاتها وسيرها المتخبط والقلق، وتفعل الطيور نفس الشيء فتطير هنا وهناك - هذه كلها علامات على قرب حدوث العواصف أو الأعاصير أو الزوايع، كما أنها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة (ثورة البراكين).

المحددة والتي تبتعد قليلا عن الأيام الثلاثة التي حددها موسى في الآيات من ١١ إلى ١٥ فإن علينا أن نعتقد أن موسى، عند حديثه إلى العبرانيين، كان يعطى لكلماته غموض الوحي القائم بالوساطة بين الناس وبين الرب، والذي يكرر ذلك دون أن يصيبه الفشل، وأن كان يدون نبوءاته (الغامضة تلك) - ما ان تمضى الحوادث، بطريقة واضحة محددة^(٦٣).

ونواصل مرة أخرى النقل عن الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١٦ : " وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أن صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذي في المحلة ؛

آية ١٧ : " وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله، فوقفوا في أسفل الجبل ؛

(٦٣) انظر بالاضافة إلى ذلك ما سبق أن ذكرناه في الجزء الخاص بعبور البحر الأحمر عن نشر الأسفار.

آية ١٨ : " وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار. وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جدا".

الآيتان ٢٠، ٢١ : " ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون".

ألسنا نضع أيدينا الآن على وصف بالغ الدقة للرعء ؟ ألسنا نرى كم كان موسى يخشى أن يأتى أحد أبناء شعبه ليجده وسط السحب التى تغطى قمة الجبل، لكنه لن يجد هناك الرب المقدس الذى اصطنع له ذكاء موسى وحكمته، وقابلية هؤلاء للايمان والتصديق مكانا هناك. **وأما موسى فقد اقترب إلى الضباب حيث كان الله،** هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج.

ويتعرف المرء كذلك - ولا يزال - فى هذا الاصحاح نفسه على الدوافع التى حدث بموسى أن يقود الاسرائيليين إلى جبل

سيناء، اذ يقول لهم : " انه الله انما جاء لكى يمتحنكم ولكى تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا".

" انتم رأيتم انتى - اى أنا الرب - من السماء قد تكلمت معكم".

وبعد ذلك، وبعد أن منع موسى أن يتبعه أحد، ذهب فوق الجبل، وأمضى هناك أربعين يوما ، وخط خلال هذه العزلة لوحى الوصايا وقدمهما إلى الشعب باعتبارهما حسب قوله " المكتوبين باصبع الرب".

وبهذه الطريقة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الكبير لشرائعهم ، نوما يستلهم حورية الماء والغاب ايجريا، والملك جبريل يملى القرآن على محمد، ومانكو كاباكا يتحدث باسم الشمس، وليكورج، نفسه، حتى ليكورج الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه فى وحى معبد دلفى. إن هؤلاء الرجال العظام، الأكبر مهارة والأكثر

* اقتباس من الآيتين ٢٠، ٢٢ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج. (المترجم).

** سفر التثنية، الاصحاح التاسع، الآية ١٠. (المترجم).

علما من عامة الناس* يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم
جيدا كي يحيطوا أنفسهم بالمهابة والقداسة. ألسنا نرى

* ينظر المؤلف إلى الجميع بلا استثناء باعتبارهم مشرعين وبذلك يطبق
فكرته على المشرع الحقيقي والمشرع المفترض وجوده وكذلك الأنبياء.
وفكرته هنا تعميمية لأقصى حد، قد تصلح دليلا على حذقه هو ولكنها لاتعد
دليلا على صدق ما يذهب اليه. وقد وضح من سياق مقاله قلة معرفته - ويكاد
يكون جهله - بالاسلام ونبيه العظيم. أما الذين يشير إليهم هنا فهم نوما
Numa : ثاني ملوك روما كما تحكى الأساطير (٧١٤ - ٦٧١ ق م) وكانت
السلطة في ذلك الوقت في يد الرؤساء أو السيناتوريين، أما الملك فكان يقوم
بدور الكاهن الأكبر. ولكي يلزم شعبه وقومه الهمجي في ذلك الوقت بالأخلاق
القيمة وجد أن من الضروري له أن يبدو في صورة من يستلهم كلماته من غير
حكمة البشر فادعى أنه يلتقى في الليل بايجريا، الحورية المقدسة التي تلهمه
الرشد والنصيحة، وأفلح بذلك في توحيد دين قبائل روما وقويت وحدة الدولة
وزاد استقرارها.

مانكو كاباكا Manco Capac : مؤسس امبراطورية بيرو وأول ملوك
الانكا، عاش في القرن العاشر الميلادي.

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيرودت أنه ابن عم الملك كاريوس ملك
اسبرطة، تلقى من الوحي في دلفي بعض مراسيم يراها البعض قوانين
ليكورج نفسها، ويراها آخرون تصديقا ريانيا على قوانين ليكورج. وقد وجد
باعتباره مشرعا أن أفضل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولادخال
عادات جديدة أن يقدم قوانينه باعتبارها أوامر من عند السماء. وفي حين
يجزم بعض المؤرخين بأنه واضع قوانين اسبرطة يرى كثيرون أنه شخصية
خيالية، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل واحد بعينه، ولكنها طائفة
من العادات تحولت إلى قوانين وسميت بأسم الشخص الذي قام بجمعها
وتدوينها. (المترجم).

كريستوف كولبوس، فى زمن أكثر حداثة، وحين كاد يهلك جوعا،
ينذر البسطاء، سكان جمايكا، بأنهم، ان لم يجلبوا الأطعمة إلى
معسكر الأسبان، فليسوف تعاقبهم يد الله، ثم حدث كسوف
الشمس الذى كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب، وأطاعوه.
حقا ! إن طفولة الشعوب تمتلئ على الدوام بالمعجزات^(٦٤).

صوت موسى

بعد أن سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى، وعلى
طريقة العربان، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء، حاولوا التوغل
فى أراضى سوريا إلى الغرب من البحر الميت.

كان موسى قد استتهض عزيמתهم مخبرا إياهم أن الرب قد

(٦٤) ليس هناك ما هو أسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق
معجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة. ألم يهرع القوم فى ايطاليا،
فى أيامنا هذه، ليحيطوا بصورة العذراء المقدسة التى كانوا "يرونها" وهى
تحرك عينيها، ولهذا السبب لم يكن القساوسة يكفون أنفسهم عناء تحريك أى
جهاز لاتمام "المعجزة"، كانوا يكتفون بالقول. هل ترون ؟ ويجب الجميع.
نعم. نحن نرى.

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

أعطى لنسل إبراهيم أرض كنعان. ومع ذلك فقد رفضوا عند وصولهم إلى حدود هذه الدولة أن يمضوا لأبعد من ذلك، فقد أفرغتهم تقارير جواسيسهم؛ ثم عادوا فطلبوا أن يدخلوا المعركة بعد أن استنفرتهم ملامات موسى، وحدث هذا الرجل الذي كان شاهداً على ما أبدوه من فزع منذ وقت قصير أنهم سيهزمون لو تجاسروا على الهجوم برغم منعه إياهم من ذلك؛ ولم يستمعوا إليه، وحققت بهم الهزيمة التامة^(٦٥). وأدرك موسى من هزيمتهم تلك، ومن عصيانهم الذي تفجر قبل ذلك بقليل، أن الاسرائيليين، لم يصبحوا بعد، مضرسين بالقتال ولا منظمين بالقدر الكافي حتى يمكنهم أن يستقروا بالقوة القاهرة في أرض السوريين؛ فانتظر في الصحراء ثمانية وثلاثين عاماً حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر. ولقد سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم، وشعر كم هو عسير أن يولد روحاً قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس متفرقة، وولدوا فوق ذلك في أغلال العبودية. واستغل من جانبه كل هذا الوقت في تطويعهم لشرائع تتناسب مع أوضاعهم وما يهدف هو إليه. ولقد نجح في ذلك، وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة

(٦٥) سفر العدد، الاصحاح الرابع عشر.

من جانب موسى، فإنه يجد ما يغريه على أن يضع هذا المشرع في مقدمة كل المشرعين الآخرين، ليس فقط لأنه انتزع عبيدا من ساداتهم وانما - كذلك - لأنه جعل منهم أمة شهيرة غير قابلة للقضاء، وإذا كانت فتوحاته وفتوحات من خلفوه لا يمكنها من ناحية الاتساع والأهمية أن تقارن بفتوحات محمد وخلفائه، في ظروف تكاد تكون متشابهة، فقد تم الأمر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه في زمنه أمما قوية وشعوبا مخرسة بالقتال تشغل أرض سوريا وفارس ومصر وبلاد العرب، أما عند ظهور محمد، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتتا من القدم بعد أن اقتسمتا العالم، وكانت الشعوب التي اخضعها هؤلاء والتي سئمت أغلالها تظن أنها تحطم أغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم إلى أيدي سادة جدد* ؛ كذلك فإن موسى كى يخلق من عبيد دولة متماسكة قد اضطر أن يوحى إليهم بالهلع من الأجانب ، وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى

* لا يمكن أى منصف أن يقبل هذه الأفكار على إطلاقها، بالإضافة إلى أن الكثير مما جاء فى كلامه مرئود عليه ولا يمكن تفسيره إلا بالتحامل أو تجاهل معطيات التاريخ، وهو أمر يؤسف له من جانب رجل يتسم بروح متحررة، وباطلاع واسع. (المترجم).

أنهم يفضلون أن يستأصلوا شأفة عدوهم عن أن يهزموه، بل انهم يزدرون المعتنقين الجدد لدينهم حتى فى ذراريهم، فلا يعطون إلا للجيل العاشر من هؤلاء الحق فى دخول جماعة الرب. فى حين أن محمدا، بعد أن أخضع للإسلام كل العرب - وكان لدى هؤلاء شعور قومى بالغ الوضوح منذ زمان بعيد، قد أمكنه أن يستخدم القوة والاقناع لحشد أنصار جدد مانحا إياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القدامى، وبهذه الطريقة ضاعف قواته الظافرة بجنود من الأمم التى فتحها*.

وقد عكف موسى، كما سبق لنا القول، لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصار الكنعانيين^(٦٦)، على تطويع العبرانيين لشرائعه، وفى النهاية حاول من جديد أن يستقر فى سوريا، وزحف نحو الشرق من البحر الميت، متخذا هذه المرة، طريقا مختلفا عن الطريق الذى كان قد اتبعه عند حملته الأولى، متجنباً فى كل الأحوال أن يمر بأرض ملك أدوم الذى كان يخشى

* وهكذا تتحول الميزات والفضائل إلى عيوب ومآخذ عند من يريدون التحامل على الإسلام بأية وسيلة. (المترجم).
(٦٦) سفر التثنية، الأصحاح الأول، الآية ٤٦، والأصحاح الثانى، الآية ١٤.

بأسه^(٦٧) . وضمن موسى لنفسه، من هذه الناحية دعم أو على الأقل حيدة كثير من العشائر حين أذاع أن العبرانيين يشتركون معهم في أصل واحد، وحين وعد باحترام أملاكهم وبأن يدفع حتى ثمن الماء الذي سيشربه هو وقومه عند عبورهم بلادهم^(٦٨) .

وعندما شنت عليه معارك أثناء مسيرته، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها، واستولى على منطقة خصيبة تقع إلى الشمال من نهر الأردن؛ وهناك، حيث شعر بقواه تخور، شاء أن يجعل من موته أمرا مفيدا في تحقيق مآربه، فأعلن للشعب أن الرب قد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قد شك مرة واحدة ، واحدة فقط، في قدرته* وأعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبال عباريم ونبؤ أشار

(٦٧) سفر العدد، الاصحاح العشرون.

(٦٨) سفر التثنية، الاصحاح الثاني.

* تقرأ في التوراة: "فقال الرب لموسى وهارون، من أجل انكما لم تؤمنا بي حتى تقدسانى أمام أعين بنى اسرائيل، لذلك لاتدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم اياها" سفر العدد، الاصحاح ٢٠، الآية ١٢ .

وكذلك "لأنكما خنتما في وسط بنى اسرائيل عند ماء مريبة قادش في بريبة صين إذ لم تقدسانى في وسط بنى اسرائيل فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك ، إلى الأرض التي أعطيتها لبنى اسرائيل". سفر التثنية، الاصحاح ٣٢، الآية ٥١ ، ٥٢ . (المترجم)

بيده للعبرانيين إلى الأرض التي سيكافئهم بها الرب جزاء
فضائلهم ولاسيما عقيدتهم الدينية.

وهأنذا استحضر صورة هذا الرجل المسن، الجدير
بالقداسة، في ملامح موسى الذي رسمه ميكل أنجلو في كنيسة
القديس بطرس، في روما ؛ جبهته التي جعلتها السنون لا تنم إلا
عن الهدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الأكبر من
الرقّة والحنو ؛ ولقد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أسنانه
البيضاء كالعاج^(٦٩) فتظلها لحية كثيفة تتدلى فوق صدره، هذا هو
يمشى ببطء ولكن في ثقة، أما شحوب لونه ونظراته الشاخصة إلى
السماء فتنبئ وحدها أنه تارك الأرض كي يذهب إلى مقام أكثر
قداسة ، يحيط به المقاتلون والنساء والأطفال، بل والعبيد، كلهم
قلقون، لكنه بصوته الملهم يتنبأ لهم بأقذارهم التي يحملها لهم
المستقبل، ويباركهم؛ ويجثو الشعب على ركبتيه، وحين يعلن لهم عن
موته الوشيك يتفجر النحيب وتنساب الدموع، في كل مكان، ويقول

(٦٩) " وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهب
نضارته " سفر التثنية. الاصحاح الرابع والثلاثون، الآية ٧.

لهم كلمة الوداع الأخيرة ثم يبتعد ؛ يتدفع الناس ليتبعوه، لكنه بحركة واحدة من يده الخائره يلزمهم أماكنهم ؛ من يتجاسر على عصيان هذا الرجل الذى اصطفته السماء فى اللحظة نفسها التى يذهب فيها كى يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره أحد بعد ذلك يعاود الظهور، أما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه، وكذلك بلا ريب لقراره الأخير، فيقود الاسرائيليين من جديد فى عربات موآب حيث يظلون يبيكونه ثلاثين يوما ؛ مشرعا ونبيا وأبا.

ومع ذلك فلن أمضى لأبعد من ذلك فى بحثى، فالجيل الذى عبر الأردن كان غريبا عن مصر، وقد لا يتصل تاريخه بقدر كاف بخطة هذا المؤلف* لكننى أختتم بهذه الفكرة ؛ إن كل ما انتهينا إلى استخلاصه من الأسفار الخمسة إنما هو احتمال وقريب كذلك من الصحة، ويتطابق أو يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الدنيويين لدرجة يستحيل معها أن تكون هذه الأحداث أسطورة ، كما شاء بعض أن يزعم ذلك بفعل خيال عزرا أو حلقيا** اللذين

*وصف مصر

** Esdras او Helcias وثلمس هنا خلطا فى الأسماء وقع فيه المؤلف، فنحن فى الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا =

كانا يعملان خيالهما لمقاصد سياسية ودينية، وفضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا - مع ذلك - للعبرانيين أجدادا أثرياء وأقوياء، ولعلهما قد قصرا حديثهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين يخترع انسان ما تاريخ أمة ، فان الكبرياء القومى هنا هو الذى يملى عليه كل جملة يقولها.

= بن حلقيا، أحد مصلحي وباعثى القومية اليهودية عند نهاية الأسر البابلى، وهو كما تصفه التوراة "كاتب ماهر فى شريعة موسى"، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذى كان نبوخذ نصر قد أمر بإعدامه بعد استيلائه على أورشليم، وبعد عودة اليهود من الأسر، بعد أن سمح لهم بذلك الملك كورش أصبح حاكما للجودية، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن "من شعوب الرجاسات" وأن عليهم ألايتزوجوا مطلقا بأجنبية كي لايزيدوا "على اثم اسرائيل". ويرى بعض المؤرخين أنه هو واضع "أخبار الأيام الأول" و"أخبار الأيام الثانى" المتممين لسفر الملوك الذى قام هو كذلك بوضعه، كما يقال أنه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهى نفسها الحروف الكلدانية. (المترجم).

الفهرس

لقدمة

الفصل الأول :

٣

- مقدمة

٦

- عن الاسفار

١٢

- عن الرعاة الرحل

١٤

- ابراهام

١٧

الفصل الثانى :

- عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر ٣١

- عن فتح مصر على يد الرعاة وعن ٤٠

العبرانيين منذ وفاة يوسف حتى هروبهم
إلى الصحراء

- هروب العبرانيين الى الصحراء ٥٢

- مسيرة العبرانيين فى الصحراء حتى ٥٨
المنطقة التى عبروا عندها البحر الأحمر

- عبور البحر الأحمر ٦٤

- المياه المرة تصبح مياه عذبة ٧٨

- عن السحاب وعمود النار وعن بعض ٨٢

الظواهر الأخرى المثيرة للانتباه

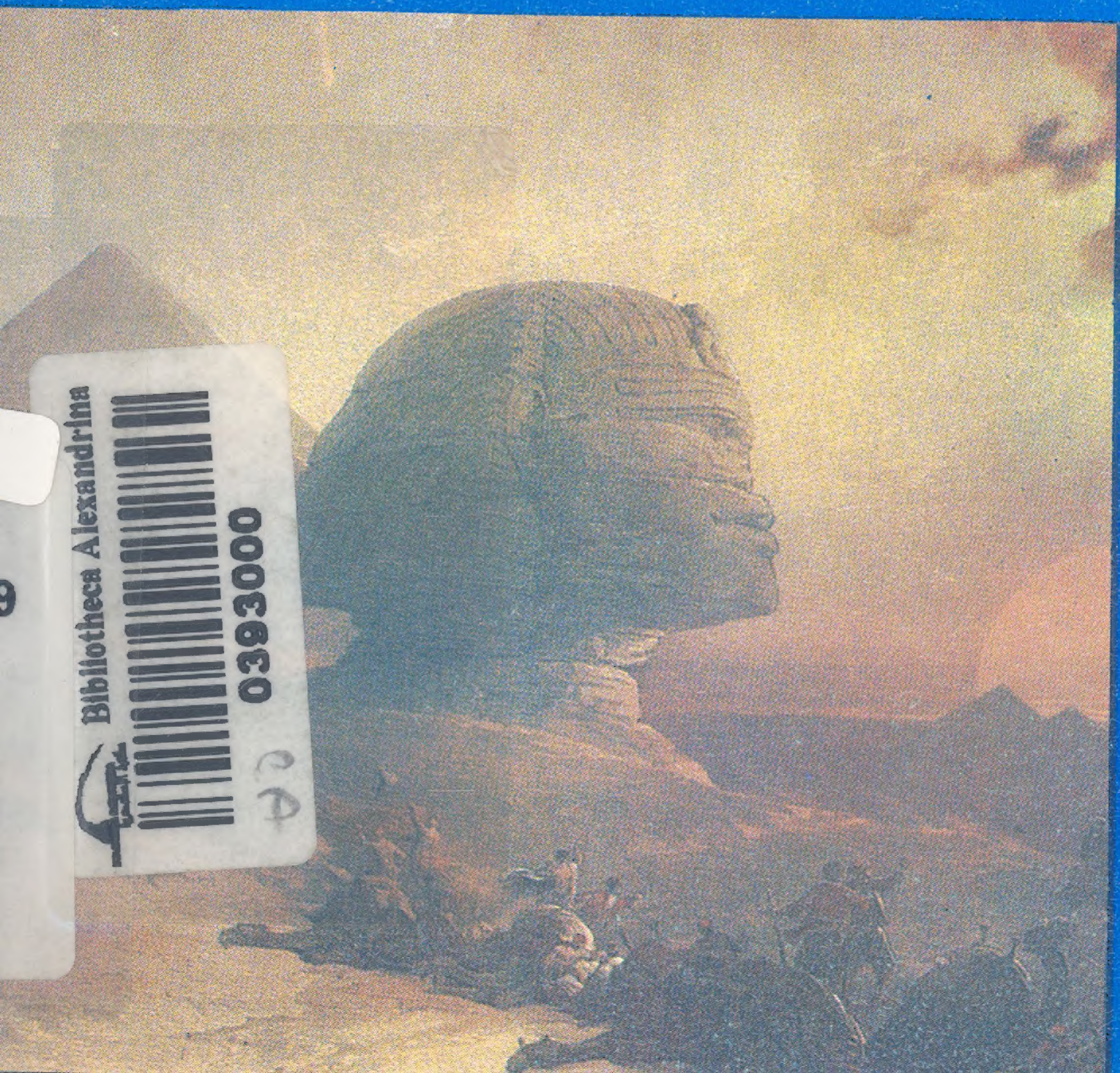
- الشريعة تنزل على جبل سيناء ٩١

- موت موسى ١٠١

رقم الإيداع ١٨٧٢ / ١٩٩١

I.S.B.N. 97700 - 1141 - X.

الكتاب القادم . .
مدينة الاسكندرية



Bibliotheca Alexandrina



0393000

22